الابعاد السياسية والاقتصادية لتطور مفهوم الحرب في الفكر الكنسي الغربي خلال العصر الوسيط

أ . م . حيدر خضير مراد
مركز الدراسات الاستراتيجية
جامعة كربلاء

الكلمات المفتاحية : الحرب العادلة، الجذور التاريخية، الحرب المقدسة، الكنيسة الغربية.

الملخص:

يعرض هذا البحث لدراسة الظروف والعوامل التي ساهمت في نمو وتبلور مفهوم الحرب في الفكر الكنسي الغربي خلال العصر الوسيط، ويسلط الضوء على الابعاد السياسية والاقتصادية التي رافقت تطور هذا المفهوم في الغرب الأوربي، والتي انعكست في سياسة الكنيسة الكاثوليكية داخل وخارج القارة الأوربية وعلاقاتها مع القوى المختلفة .

وقد تبين لنا من خلال هذه الدراسة ان العوامل التي ساهمت في نمو وتطور مفهوم الحرب في الفكر الكنسي الغربي تكمن في الاجتهادات النظرية للقديس أوغسطين بخصوص عدالة الحرب ومشروعيتها، والملاحم البطولية والنزعة العسكرية للشعوب الجرمانية، فضلاً عن التطورات التاريخية التي كان الغرب الأوربي مسرحاً لها ، والتي أدت الى عسكرة المجتمع في تلك المدة، واستناداً الى ذلك يمكن القول ان بروز وتبلور مفهوم الحرب المقدسة كان تطوراً ايديولوجياً أنفرد به الغرب اللاتيني نتيجة مجموعة من الظروف والعوامل التاريخية التي ترتبط بواقع المجتمع الأوربي وحاجاته خلال العصور الوسطى، وان هذا التطور لا يخلوا من أبعاد سياسية واقتصادية ارتبطت بمصالح الكنيسة الغربية ورجال الدين في تلك الفترة ، وكان لها أثرها الواضح في تطور هذا المفهوم.

المقدمة:

منذ عصور موغلة في القدم والحكام وأرباب السلطة السياسية يستغلون الدين لتبرير العدوان على الأمم والشعوب الآمنة واغتصاب اوطانها واستنزاف ثوراتها وخيراتها، خدمة لأغراضهم السياسية وتدعيماً لسلطانهم وتحقيق مطامعهم، التي ليست من الدين في شيء، وهي ظاهرة متكررة لازمت تاريخ البشرية منذ أقدم الحضارات وحتى عصرنا

الراهن، وباعتبار الحرب أحدى حقائق الحياة التي لا يمكن اغفالها او التغاضي عنها، فقد جاء الدين ليعترف بها ويضع لها القواعد والتشريعات، ولبست الكثير من الحروب التي شهدها التاريخ الإنساني ثياب الدين، الذي استغل كأداة لأثارة عواطف الناس ومشاعرهم ودفعهم نحو القتال والحرب تحقيقاً لمصالح الحكام وتنفيذاً لمآربهم السياسية والاقتصادية، فلا غرابة في ان تشن الحرب باسم الدين في أي زمان ومكان ، ولكن وجه الغرابة هو ان تشن الحرب باسم الدين المسيحي، لأن من يتأمل ويمعن النظر في الأناجيل المسيحية يجد اتجاهاً سلمياً واضحاً يفرض نفسه على أتباع هذا الدين، ومن يطالع تاريخ المسيحية في عهودها الباكرة يسترعي انتباهه على الفور ذلك الموقف المعادي للحرب وإراقة الدماء من جانب المسيحيين الأوائل. فكيف أذن تحولت الكنيسة الغربية الى كنيسة مقاتلة ؟ وماهي العوامل التي تجمعت لتخلق تيار الحرب المقدسة الذي تبنته الكنيسة اللاتينية في العصور الوسطى، والذي توج بقيام الحروب الصليبية ضد العالم الإسلامي؟ وماهي الابعاد السياسية والاقتصادية لتطور مفهوم الحرب في الفكر الكنسي الغربي ؟ .

هذا ما سنحاول الإجابة عنه من خلال هذه الدراسة وتوضيح أبعاده وملابساته وجوانبه المختلفة بكل موضوعية وحيادية ، لذلك جاء هذا البحث بعنوان " الابعاد السياسية والاقتصادية لتطور مفهوم الحرب في الفكر الكنسي الغربي " .

وقد قسمت هذه الدراسة الى عدة محاور ، تناولنا في المحور الأول مفهوم الحرب ، وفي الثاني الجذور التاريخية لمفهوم الحرب في الغرب الأوربي، ثم قمنا باستعراض الموقف الفكري من مفهوم الحرب بعد ظهور الديانة المسيحية وانتشارها في أوربا، وفي المحور الرابع تطرقنا لدور القديس أوغسطين واجتهاداته النظرية في وضع أسس نظرية الحرب العادلة في الفكر المسيحي، ثم سلطنا الضوء على تطور الموقف الرسمي للكنيسة الغربية تجاه فكرة الحرب وابعاد هذا الموقف السياسية والاقتصادية ، وفي المحور السادس والأخير تناولنا دور البابوات في التطور النهائي لمفهوم الحرب المقدسة في الفكر الكنسي الغربي ، والذي توج بنشوب الحرب الصليبية التي اكتوى بنارها العالم الإسلامي لما يقارب قرنين من الزمن ، والتي مثلت التطور النهائي لهذا المفهوم في الغرب الأوربي ، وكانت لها أبعاد سياسية واقتصادية تصب في مصلحة الكنيسة الغربية وتنفيذ مشاريعها التيوقراطية العالمية آنذاك في داخل أوربا وخارجها .

ومن الأهمية بمكان الإشارة الى ان كنيسة روما في القرون الوسطى هي غير الكنيسة الغربية اليوم التي تعد مساهم أصيل في السلام العالمي انطلاقاً من الدور الأخلاقي والأدبي الذي بات يمثله الفاتيكان باعتباره مركز القيادة الروحية للكنيسة الكاثوليكية في العالم ، وقد قدمت البابوية اعتذاراً عن الحروب الصليبية في ربيع عام 2000م واعتبرتها خطأ في تاريخها (رستون ، 2002م، ، ص20).

وأهم المصادر والمراجع التي اعتمدنا عليها في هذه الدراسة كتاب (الخلفية الإيديولوجية للحروب الصليبية دراسة عن الحملة الأولى 1095 – 1099م) لقاسم عبده قاسم ، وقد أمدنا بمعلومات هامة عن نمو فكرة الحرب المقدسة وتطورها التدريجي في غرب أوربا ، والظروف والعوامل التي ساهمت في ذلك ، وكتاب " The Just War in the Middle Ages " لفردريك راسيل الذي افادنا في تغطية الكثير من الجوانب التي تخص نمو وتطور مفهوم الحرب في فكر الكنيسة الغربية في العصور الوسطى والعوامل المؤثرة في هذا التطور ، وكتاب " War and Peace in the Western Political Imagination " لروجر مانينغ الذي أفاد الدراسة في مقارنة الموقف الغربي بالموقف البيزنطي تجاه مفهوم الحرب ، وفي رصد الظروف والتطورات الداخلية في أوربا التي اسهمت في نمو وتبلور مفهوم الحرب في الغرب اللاتيني خلال العصر الوسيط ، فضلاً عن بعض المقالات المنشورة على شبكة الانترنيت وغيرها من الكتب والمراجع التي قدمت معلومات قيمة أفادت محتوى البحث من عدة جوانب .

أولاً : مفهوم الحرب

لحرب لغة : نقيض السلم ، وهي لفظة مؤنثة تصغيرها حريب (أبن منظور، د.ت ، ج10، ص815- 816) ، وقد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم بمعنى القتال ، قال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تَظلِمون ولا تُظلَمُون "[سورة البقرة : الآية 278-279]، وقوله تعالى : " كلما اوقدوا ناراً للحرب اطفأها الله " [سورة المائدة : الآية 64] .

كما وردت بمعنى المعصية بقوله تعالى : " إنما جَزاءُ الذِينَ يحاربون الله ورسُولَهُ ويسعون في الأرض فساداً أن يُقتَّلوا أو يُصلبُوا أو تُقطَّعَ أيديهم وأرجلهم من خلافٍ أو ينفوا من الأرض ذَلِكَ خِزيُ في الدُّنيا ولَهُم في الأخِرةِ عَذَابُ عَظيم " [سورة المائدة : الآية 33] والحرب محمولة أيضاً على معنى القتل والهرج، وجمعها حروب ، ومن معانيها العداوة والعدو ، كما في قول أهل اللغة : وأنا حَربُ لمن حاربني أي عدو، وفلان حرب فُلانٍ أي محاربة، وفلان حرب لي أي عَدُّو محارب (أبن منظور، د.ت ، ج10 ، ص816) والتحريب : إثارة الحرب ، ورجل مِحَربُ ، كأنه آلة في الحرب ، والحربة : آلة للحرب معروفة (الراغب الأصفهاني، د.ت ، ص112) ودار الحرب : بلاد المشركين الذين لا صُلُح بيننا وبينهم (الفيروز آبادي ، 2005م ، ص73)، وفي المعجم الوجيز الحرب هي القتالُ بين فئتين، واحَتَربُوا أو تحاربوا بمعنى حارَبَ بعضُهم بعضاً(مجمع اللغة العربية ،1989م، ص142) .

أما الحرب في الاصطلاح فهي مفهوم له جوانب متعددة ومعاني مختلفة ، إذ ان هناك كثير من التعريفات لها ، وقد تناولها كلاً من زاوية تخصصه واهتمامه ، حيث عرفت عند فقهاء السياسة بأنها نزاع مسلح بين طرفين أو أكثر يهدف كل طرف منهم الى السيطرة

وفرض ارادته على الطرف الأخر ، وهي بهذا المفهوم شكل من اشكال العلاقات الدولية يستخدم فيها السلاح والقوة بدلاً من لغة الكلام والدبلوماسية (عليوي ، 2019م ، ص21) ، وهي بذلك تعد استمرار للسياسة بطرق أخرى (غرين ، 2009م ، ص267) .

وفي نظر الاقتصاديين أن الحرب يمكن ان ينظر اليها باعتبارها نمو للمنافسة الاقتصادية في ظل نظام دولي تنافسي(حرب ، ص5) .

اما منظري علم الاجتماع فيرون ان الحرب هي أمر طبيعي في البشر لا تخلو عنه أمة ولا جيل ، وأصلها إرادة انتقام بعض البشر من بعض ... وسبب هذا الانتقام في الأكثر إما غيرة ومنافسة ، وإما عدوان وإما غضب لله ولدينه ، وإما غضب للملك وسعي في تمهيده (ابن خلدون ، 2001م ، ج1، ص334) ، وهي تمثل الدرجة القصوى من العنف المنظم بين الجماعات البشرية (قاسم ،1999م، ص14) ، وحسب فقهاء القانون الدولي ان الحرب صراع مسلح بين دولتين أو بين فريقين من الدول يكون الغرض منه الدفاع عن حقوق ومصالح الدول المحاربة (الزحيلي ، 1998م ، ص35) ، ويتم اللجوء اليها ، لحسم خلاف دولي وحله عن طريق القسر بعد تعثر الوسائل السلمية (المرجع نفسه ، ص36) .

أن جميع التعاريف السابقة لمفهوم الحرب لا تخرج عن كونها تمثل صراع وقتال بين بني البشر يسوده العنف والدمار، ويسفر عنه نتائج سلبية تنعكس على كل الأطراف المشاركة فيه ، فالحرب ظاهرة إنسانية ملازمة للتاريخ البشري منذ خلق الله الأنسان وحتى يومنا الحاضر، وهي تمثل كارثة كبرى للأنسان وحالة اختلال أو انقطاع في العلاقات السلمية بين المجتمعات البشرية لتسود لغة السلاح بدلاً عن لغة التفاهم والحوار، وغالباً ما تكون ذات أبعاد واهداف سياسية واقتصادية وحتى دينية ترتبط بمصالح الطرف الذي يقوم بأشعال فتيلها .

ثانياً : الجذور التاريخية لمفهوم الحرب في الغرب الأوربي

تمثل الحرب أقدم نشاط عرفته البشرية ، فمنذ ان قتل قابيل أخاه هابيل وهام في البرية يحمل وصمة الذنب الذي جناه ، والانسان لا يكف عن الحرب والقتال ، وعلى الرغم من هذا ، وربما بسببه ، سعى الناس دائماً الى ايجاد المبرر الأخلاقي للحرب ، لكي يجعلوا من قتل الانسان لأخيه الانسان أمراً مشروعاً ، وقد اختلفت المبررات الأخلاقية للحرب من عصر الى أخر وفقاً للأيديولوجية السائدة في المجتمع (قاسم ،1999م، ص11) ، ففي العصور القديمة كان حق الغزو لتحقيق الأمجاد ، أو البحث عن موطن أفضل، مبرراً كافياً لشن الحرب (مراد ، 2020م ، ص1) ، ثم كان ظهور الاديان السماوية بلا ريب عاملاً حاسماً في ابراز العوامل الإنسانية التي أدت الى نمو الجذور الأولى لقانون الحرب (كهينة ، 2011م ، ص1) ، فقد جاء الدين ليعترف بالحرب ويضع لها القواعد والتشريعات ، باعتبارها إحدى حقائق الحياة التي لا يمكن التغاضي عنها (عبد الوهاب ، 2000م ، ص3) ، كما ان الدين كانت له آثار كبيرة في كثير من الحروب عبر

الـزمن ، حيـث اسـتخدم كـأداة لإثـارة شـجن النـاس وعـواطفهم ودفعهـم للقتـال (عليـوي ، 2019م ، ص100) ، كمـا حصـل في العصـور الوسـطى عنـدما لبسـت الحـرب ثيـاب الـدين في أغلـب الأحـوال ، وهـا نحـن أولاء ، في عصـرنا الحـالي نـرى الحـروب تنـدلع هنـا وهنـاك ، تهلـك بنـي البشـر بعشـرات الألـوف ، وتـدمر المـدن والأريـاف ، وتمحـو مظـاهر الحيـاة في بعـض الأقـاليم والبلـدان متذرعـة بنشـر الحضـارة بـين قـوم متخلفـين تـارة ، وبحجـة الـدفاع عـن الحريـة وحقـوق الانسـان تـارة أخـرى ، بـل إن أكثـر الحـروب تـدميراً وتخريبـاً وفتكـاً بالإنسـان تشن اليوم بحجة إقرار السلام (قاسم ،1999م، ص11) .

وقـد اتسـمت معظـم الحـروب التي شـهدتها العصـور القديمـة بالوحشـية (كهينـة ، 2011م ، ص1) ، وكانـت الامبراطوريـة الرومانيـة دولـة عسـكرية مـن الطـراز الأول لهـا نظمهـا وعقيـدتها وتكتيكهـا العسـكري ، الـذي يكفـل لهـا حمايـة حـدودها المترامية الاطـراف ، وكانـت ايـديولوجيتها العسـكرية تعمـل علـى مواجهـه الاعـداء قبيـل اقتـرابهم مـن حـدودها اي ان معظـم حروبهـا كانـت حروبـاً هجوميـة ، ومـع ذلـك ظهـرت بعـض الاصـوات ضـد الاسـتخدام غير المبـرر للعنـف ، وبـدء البحـث عـن المبـرر الأخلاقي لإعـلان الحـرب وممارسـتها ، فأخـذ الكتـاب والفلاسـفة يحللـون بشـيء مـن التفصـيل جوانـب الحـرب المختلفـة (علـي ، 2016م ، ص د) ، وعملـوا على وضـع بعـض القواعـد والاحكـام التي تمليهـا الاعتبـارات الانسـانية والتي ينبغي على الاطـراف المتنازعـة الالتـزام بهـا ، وقـد أسـتمر هـذا التوجـه الفلسـفي مـدة مـن الـزمن الى أن أخـذ طابعـاً عرفيـاً ، إذ تجسـدت هـذه القواعـد في شـكل عـادات ومبـادئ عرفيـة يتحـتم مراعاتها من طرف قادة وزعماء الجيوش المتحاربة (كهينة ، 2011م ، ص1) .

وقـد شـكلت تلـك القواعـد والاحكـام الملامـح والارهاصـات الفكريـة الأولى لظهـور نظريـة الحـرب العادلـة في الغـرب الأوربي فيمـا بعـد ، والتي يختلـف البـاحثون في أصـل نشـأتها ، فهنـاك مـن يـرى أنهـا تعـود الى مصـر القديمـة ، وهي بـذلك قـد نشـأت خـارج حـدود أوربـا ، وكانـت موجـودة قبـل قـرون عديـدة مـن ظهـور المسـيحية او حتى العقائـد اليونانيـة والرومانيـة القديمة (Cox, 2017,p. 371).

بينمـا يعتقـد الـبعض بـأن الخطـاب الغربـي حـول أخلاقيـات الحـرب والقتـل قـد بـدأ قبـل المسـيحية بالفلسـفة اليونانيـة والرومانيـة القديمـة ، وان مصـطلح " الحـرب العادلـة " قـد أبتكـر مـن قبـل أرسـطو لأول مـرة لنقـل فكـرة الحـرب كوسـيلة لتـأمين السـلام والازدهـار مـن خـلال الـدفاع عـن الـنفس ضـد غـزو الحضـارات البربريـة (Izant,2010,p.13 ; Russell,1975,p.3-4) ، فـالحرب وفـق فلسـفته لا تقـع إلا لقصـد السـلام وهـي وسـيلة وليسـت غايـة بحـد ذاتهـا ، فيعـد أرسـطو أول مـن وضـع ملامـح الحـرب العادلـة في فلسـفته (علـيوي ، 2019م ، ص144) ، لتحديـد الظـروف التي يمكـن خلالهـا ممارسـة الحـق المشـروع في ممارسـة الأعمـال العدوانيـة والتي يكـون الهـدف الأول منهـا هـو الحصـول على السـلام (كهينة ، 2011م ، ص2 حاشية 3) .

ومهما يكن من اختلاف الآراء حول أصل نشأة فكرة الحرب العادلة وموطن ظهورها ، فقد برزت هذه الفكرة وتبلورت في الحضارات القديمة كأول محاولة من قبل التفكير الانساني لتبرير الحرب وشرعنتها وايجاد مبرر أخلاقي لها .

وقد أصبحت الحرب تقريباً ممارسة قانونية بموجب القانون الروماني(Izant,2010,p.13) ، بفعل بروز بعض الفلاسفة الذين اهتموا بموضوع الحرب ، وقد عملوا على جعل الأفكار اليونانية تتلاءم مع التفكير الروماني ، ومن أبرزهم شيشرون Cicero[1] الذي وضع أول صياغة لمفهوم الحرب العادلة في كتابه (DE Officiis) بوصفها حرب ترتكز على اساس العدالة والاعتدال (عليوي ، 2019م ، ص146 – 147؛ كهينة ، 2011م ، ص2 حاشية3 ؛Izant,2010,p.13)، وقد شكلت آراء وافكار هؤلاء الفلاسفة والمفكرون الجذور الأولى والقواعد الاساسية التي ارتكزت عليها نظرية الحرب العادلة التي أكتمل نضوجها واتضحت معالمها على يد رجال اللاهوت الكنسي فيما بعد .

ثالثاً : الموقف الفكري من مفهوم الحرب بعد ظهور الديانة المسيحية

ساهم ظهور الديانة المسيحية وانتشارها في انحاء مختلفة داخل الامبراطورية الرومانية في بداية تغيير مفاهيم الرومان عن الحرب ، خاصة بعد اجتياح الشعوب الجرمانية للغرب الأوربي، فلم تعد حروب روما الهدف منها مهاجمة الاعداء في عقر دارهم ، وإنما صار هدفها هو استرداد الأراضي الرومانية المفقودة (علي ، 2016م ، ص د) .

والواقع ان الديانة المسيحية قد جوبهت في بداية أمرها بمقاومة شديدة من طرف الحاكمين في روما (كهينة ، 2011م ، ص1) ، لأن الدين المسيحي يقوم أصلاً على فكرة السلام الخالصة، ومن تعاليمه الثابتة النهي عن العنف والقتل والتحذير من القيام به ورفض الحروب بجميع اشكالها ووصفها بأنها مذابح بشرية رهيبة (الشيخ ، 2004م ، ص80- 81؛ عليوي ، 2019م ، ص123؛ كهينة ، 2011م ، ص1) ، وأن من يقرأ الانجيل تطالعه نصوص عديدة تفيد بأن المسيحي مأمور بعدم اللجوء إلى العنف ، منها قول المسيح (عليه السلام) لأحد اتباعه : " رد سيفك الى مكانه ، لأن كل الَّذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون " (متى ، الاصحاح 26 : آية 47- 53) ، والانجيل يرفض مقابلة الشر بالشر والعنف بالعنف ، وإنما يطلب من المسيحي ان يتغلب على الشر بالخير ، كما جاء في رسائل بولس الرسول الى أهل رومية : " لا تجازوا احداً عن شرّ بشَرّ ، مُعتنين بأمورٍ حسنةٍ قدّام جميع الناس، إن كان مُمكناً فحسب طاقتكم سالمُوا جميع النّاس، لاتنتقموا لأنفسكم أيها الاحباء ، بل أعطوا مكاناً للغضب ، لأنه مكتوب : " لي النقمة أنا أجازي يقول الرّبّ" ،... لا يغلبنك الشر بل أغلب الشر بالخير" (رسالة بولس الرسول الى رومية ، الاصحاح 12 : آية 17- 21) ، ويتأكد هذا الاتجاه السلمي مرة اخرى بما ورد في إنجيل متى على لسان المسيح حين قال: " سمعتم أنه قيل عينٌ بعينٍ وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الأخر أيضاً ...

أحبـوا اعـداءكم ، بـاركوا لاعنـيكم ، احسـنوا الى مُبغضـيكم " (متى ، الاصـحاح 5 : آيـة 38 – 44) .

وبـذلك يتضـح جليـاً مـن هـذه النصـوص الانجيليـة ، أن المسـيحية تعـارض العنـف وتعاليمهـا تمنـع المسـيحي مـن ان يكـرس نفسـه للحـرب ، وبالتـالي امتنـع معظـم المسـيحيون الاوائـل عـن اداء الخدمـة العسـكرية ورفضـوا الانخـراط في الجـيش الرومـاني والمشـاركة في الحـروب التـي كانـت تشـنها الامبراطوريـة الرومانيـة (فلـوري ، 2004م ، ص26 ؛ كهينـة ، 2011م ، ص1) ، ممـا ادى الى قيـام صـراع عنيـف بـين دعـاة المسـيحية المسـالمة وأبـاطرة رومـا (كهينـة ، 2011م ، ص1 ؛ فلـوري ، 2004م ، ص26) ، حتـى باتـت الحكومـة الرومانيـة تعتبـر اعتنـاق المسـيحية جرمـاً في حـق الدولـة واخـذت تـنظم حمـلات الاضـطهاد ضـدهم (عاشـور ،1976م، ص34) .

ومـن خـلال ذلـك يتضـح ان موقـف المسـيحية المبكـرة يـتلخص في الـرفض المطلـق لفكـرة الحـرب واراقـة الـدماء ، وامتنـاع أكثـر اتباعهـا عـن اداء الخدمـة العسـكرية في الجـيش الامبراطـوري تحـت رايـة النسـر الرومـاني ، إلا أننـا وعلـى الـرغم مـن ذلـك نجـد ان الموقـف الفكـري في المسـيحية مـن الحـرب قـد شـهد مفارقـة مذهلـة وتطـوراً فريـداً مـن نوعـه يسـعى مـن النقـيض الى نقيضـه ، فمـن الـرفض الفكـري لفكـرة الحـرب في المسـيحية البـاكرة الى فكـرة الحـرب المقدسـة التي جعلـت مـن الحـرب أمـراً مـن الـرب يشـنه بنفسـه وينفـذه مـن خـلال المسـيحيين جنـود المسـيح Christi miles هـذا التطـور يكشـف عـن مثـال اسـتثنائي ومـدهش لكيفيـة تسـخير الأفكـار الدينيـة وتوظيفهـا في خدمـة السياسـة بحيـث يـتم نسـج فكـرة أساسـية ، مثـل الحـرب المقدسـة ، علـى الـرغم مـن تناقضـها الواضـح مـع التعـاليم المسـيحية ذاتهـا (قاسم ،1999م، ص13) .

أمـا سـبب هـذا التحـول والتطـور الفكـري في موقـف الكنيسـة المسـيحية مـن مفهـوم الحـرب ، فهـو أنـه بعـد اضـطهاد الامبراطوريـة الرومانيـة للمسـيحية قرابـة ثلاثـة قـرون (شـلبي ، 1998م ، ص81- 83 ؛ عليـوي ، 2019م ، ص101) ، إلا أن الأمـر لـم يلبـث ان تغيـر مـع بدايـة القـرن الرابـع الميلادي الـذي شـهد انتصـار المسـيحية بعـد اعتـراف الامبراطـور قسـطنطين (306 – 337م) بالـدين المسـيحي كديانـة رسـمية للـبلاد بموجـب مرسـوم مـيلان عـام 313م (عاشـور ،1976م، ص36؛ شـلبي ، 1998م ، ص83 ؛ جيبـون ، 1997م ، ج1 ، ص402-403) ، فأخـذ نفـوذ الكنيسـة يـزداد شـيئاً فشـيئاً في المجتمـع والدولـة ، بعـد ان اضـحت المسـيحية ديـن الامبراطوريـة الرومانيـة التي تحولـت الى مملكـة مسـيحية (قاسـم ،1999م، ص14؛ عليـوي ، 2019م ، ص102) ، فجـاء تحـالف الكنيسـة والدولـة ليشـكل الخطـوة الأكثـر أهميـة في اضـفاء الشـرعية علـى فكـرة الحـرب (علـي ، 2016م ، ص د ؛ كهينـة ، 2011م ، ص1) ، الأمـر الـذي ادى الـى اضـطراب فكـر المسـيحيين الـذين كـانوا يعتقـدون أن اراقـة الـدماء جريمـة يحرمهـا الكتـاب المقـدس (كهينـة ، 2011م ، ص1-2 ؛ علـي ، 2016م ،

ص د) ، لـذلك تعـين على آبـاء الكنيسـة الكاثوليكيـة ان يواجهـوا مشـكلة الحـرب ، وان يجـدوا أجابـة مناسـبة للسـؤال المهـم الـذي بـات يطـرح نفسـه بشـدة وبشـكل ملح في خضـم الغـزوات الجرمانيـة للغـرب الأوربـي ، والـذي يـتلخص في أنـه : هـل يحـق للفـرد المسـيحي ان يقاتـل دفاعـاً عـن وطنـه وعـن نفسـه ، او ان يتخـذ مـن الحـرب مهنـة يكـرس لهـا نفسـه ، ومـا مـدى شـرعية قيامـه بـذلك؟، في ظـل تعـاليم المسـيحية التي تحـرم العنـف بكـل اشـكاله وتؤكـد على رفـض الحـــرب وادانتهـــا (قاســـم ،1999م، ص13، 15 ؛ رنســـيمان ، 1993م، ج1، ص149؛ عبـــد الوهاب ، 2000م ، ص30؛ فيشر ، 2014 م ، ص 105 – 106)

حقيقـة ان هـذا السـؤال لـم يكـن يـؤرق الكنيسـة كثيـراً في عهودهـا البـاكرة عنـدما كـان المسـيحيون يعيشـون بمعـزل عـن الدولـة (قاسـم ،1999م، ص14 ؛ فيشـر ، 2014 م ، ص106) ، ولـم تكـن الشـكوك تسـاور المفكـرين المسـيحيين الاوائـل حـول عـدم مشـروعية الحـرب التي رفضـوها وادانوهـا واعتبروهـا قتـل بالجملـة (رنسـيمان ، 1993م، ج1، ص149؛ فيشـر ، 2014 م ، ص106 ؛ قاسـم ،1999م، ص14) ، إلا أن الموقـف قـد تغيـر بعـد انتصـار الصـليب ، وبعـد تحـول الامبراطوريـة الرومانيـة الى مملكـة مسـيحية (رنسـيمان ، 1993م، ج1، ص149؛ عبـد الوهـاب ، 2000م ، ص30) ، وظهـور فكـرة القتـال للـدفاع عـن الـوطن المسـيحي والـدين المسـيحي (الشـيخ ، 2004م ، ص80-81) ، أفـلا ينبغـي علـى مـواطني الإمبراطوريـة ان يكونـوا على أهبـة الاسـتعداد لحمـل السـلاح مـن أجـل الـدفاع عنهـا والحفـاظ أمنهـا ورفاهيتهـا (رنسـيمان ، 1993م، ج1، ص149؛ عبـد الوهـاب ، 2000م ، ص30) ، أليـس مـن الضـروري في بعـض الأحيـان اسـتخدام القـوة لحمايـة الابريـاء مـن الاعتـداء ، ولتمكـين الحـق مـن ان يسـود (فيشـر ، 2014 م ، ص106) ، لـذلك أهـتم آبـاء الكنيسـة والمفكـرون الكاثوليـك بهـذا الموضـوع واخـذوا يبحثـون عـن أجابـة مناسـبة لهـذا السـؤال الهـام (كهينـة ، 2011م ، ص2 ؛ قاسـم ،1999م، ص14) ، فـي محاولـة للتوفيـق بـين التعـاليم المسـيحية المسـالمة مـن جهـة ، والحـرب وأعمـال العنـف مـن جهـة أخـرى (قاسـم ، 1990م ، ص28 ؛ كهينة ، 2011م ، ص1 ؛ عليوي ، 2019م ، ص124) .

ومـن المهـم الاشـارة إلى أن الفكـرة القائلـة بـأن الحـرب ضـد الاعـداء يمكـن ان تكـون حربـاً مقدسـة كانـت تطـوراً أنفـرد بـه الغـرب اللاتيني ، في ظـل الظـروف التاريخيـة والتحـولات التي طـرأت على واقـع مجتمـع الغـرب الأوربـي في العصـور الوسـطى مـن ناحيـة ، ومـن ناحيـة أخـرى كانـت هـذه الفكـرة اسـتجابة لحاجـات هـذا المجتمـع في تلـك الفتـرة (قاسـم ،1999م، ص14 ؛ كـاهن ، 1995م، ص77) ، ففـي الشـرق البيزنطـي سـار التطـور الفكـري فيمـا يخـص مفهـوم الحـرب فـي اتجـاه أخـر ، حيـث أدان اللاهوتيـون ، وعلـى رأسـهم القـديس باسـيل القبـادوقي الكبيـر الأب الشـرقي للكنيسـة البيزنطيـة ، الحـرب بأشـد العبـارات واعتبروهـا قـتلاً جماعيـــاً (قاســـم ، 1990م ، ص28 ؛ مـــاير ، 2008م، ص50 ؛ Manning,2016,p.88) ، ولـم تقتنـع الكنيسـة البيزنطيـة ابـداً بمباركـة الحـرب المقدسـة (Rowe , 1955, p.4 ؛ كاهن ،

1995م، ص77) ، وبينما أعترف القديس باسيل بأن على الجندي إطاعة الأوامر ، إلا أنه يوصي الجندي الذي قتل عدوه بأن يكفر عن ذنبه بالامتناع عن تناول القربان المقدس[2]، الذي هو علامة التوبة لمدة ثلاث سنوات (رنسيمان ، 1993م، ج1، ص150 ؛ Manning,2016,p.88) ، وهذا الرأي صارم للغاية ، ولم يكن الجندي البيزنطي في الواقع يعامل باعتباره قاتلاً ، الا ان مهنته لم تكن تجلب عليه أية امجاد في رأي الكنيسة الشرقية (رنسيمان ، 1993م، ج1، ص150 ؛ قاسم ،1999م، ص14) ، فأن تكون محارباً في ميدان المعركة لا يمنحك المكانة أو يكسبك جاذبية خاصة كما هو الحال في الغرب الأوربي (Manning,2016,p.88) ، فليس الموت في ساحة القتال شيئاً مجيداً ، كما ان الموت في معركة ضد الكفار ليس استشهاداً ، وإنما الشهيد هو فقط من يموت متسلحاً بالأيمان(رنسيمان ، 1993م، ج1، ص150؛ قاسم ، 1990م ، ص43) ، وكانت محاربة الكفار شيئاً يبعث على الأسى رغم عدم إمكانية تجنب الحرب احياناً ، أما محاربة الرفاق المسيحيين فكانت شراً مضاعفاً (رنسيمان ، 1993م، ج1، ص150) .

وباعتبار الامبراطورية البيزنطية وريثة لتقليد قانوني قوي، استمرت في تطبيق المفهوم الروماني للحرب العادلة من أجل الدفاع عن اراضيها أو استعادة الأراضي المفقودة، إلاَّ أن ما يميز الاباطرة والقادة البيزنطيين بشكل خاص عن اسلافهم الرومان، هو محاولاتهم المستمرة لاستخدام الدبلوماسية لتجنب الحرب قدر الامكان وحشد الحجج القانونية لإعلان الحرب عندما لا يمكن تجنب إراقة الدماء (Manning,2016,p.88) .

وحقيقة الأمر ان التاريخ البيزنطي كان خلواً من الحروب العدوانية بصورة ملحوظة، فقد انطلقت حملات جستنيان(527 – 565م) لتحرير الرومان من الحكام البرابرة الهراطقة[3]، ومن أجل استعادة أهم المقاطعات الغربية المفقودة(رنسيمان ، 1993م، ج1، ص150؛ Manning,2016,p.89) ، واستهدفت حملات بازل الثاني ضد البلغار استعادة المقاطعات الإمبراطورية وإزالة خطر يتهدد القسطنطينية ، وغالباً ما كانت الطرق السلمية هي المفضلة لدى أباطرة بيزنطة حتى وإن كانت تشتمل على دبلوماسية ملتوية[4]، أو دفع أموال (رنسيمان ، 1993م، ج1، ص150 ؛ رنسيمان ، 1997م، ص192-193) ، أو حتى تكريم الاعداء ودفع الجزية لجيرانهم من الفرس والعرب او الجماعات القبلية كالصرب والبلغار والمجريين[5] من اجل تجنب الدمار الذي تخلفه الحرب (Manning,2016,p.88) ، ولهذا كانت ممارسات رجال الدولة البيزنطية هذه تبدو وكأنها ضرب من ضروب الجبن والتخاذل في عيون المؤرخين الغربيين الذين اعتادوا على الاعجاب بالشجاعة العسكرية (رنسيمان ، 1993م، ج1، ص150؛ قاسم ،1999م، ص15؛ Rowe ,1955,p 8. ؛ Manning ,2016 ,p 89,91.) ، غير ان الدافع البيزنطي في الحقيقة كان هو الرغبة الاصيلة في تجنب سفك الدماء (رنسيمان ، 1993م، ج1، ص150؛ قاسم ،1999م، ص15) ، وكان تجنب الحرب في كثير من الاحيان جزءاً من

الاستراتيجية البيزنطية (Manning,2016,p.91) ، لقد كان لدى البيزنطيين مفهوم علماني للحرب العادلة ، وأصروا على أنهم قاتلوا فقط دفاعاً عن النفس ، ومن أجل استعادة الاراضي التي تم الاستيلاء عليها بالقوة والباطل ، لذلك كان الهدف من حروبهم ، (كما أصرت آنا كومنينا (1083- 1153م) ابنة الامبراطور الكسيوس الأول ، في تاريخها الالكسياد ، وهي واحدة من أكثر النماذج المعبرة عن الشخصية البيزنطية) ، دائماً هو استعادة السلام ، وشمل ذلك استعادة الاراضي التي كانت تابعة للإمبراطورية البيزنطية (Manning,2016,p.90 ؛ Rowe , 1955, p.4) .

وقد وضحت الأميرة آنا كومنينا أنه بقدر عمق اهتمامها بالمسائل العسكرية ، وبقدر تقديرها البالغ لانتصارات والدها في المعارك الحربية ، إلا أنها تعتبر الحرب شيئاً مشيناً ، وملاذاً أخيراً عندما تعجز باقي السبل الأخرى ، وأن الحرب في حد ذاتها تمثل اعترافاً بالفشل في حقيقة الأمر (رنسيمان ، 1993م، ج1، ص150-151 ؛ Manning,2016,p.91) .

كانت بيزنطة واحدة من أكثر الدول المحبة للسلام في عوالم العصور القديمة والوسطى، لكنها محاطة من جميع الجهات بقبائل وقوى معادية (Manning,2016,p.89) ، وغالباً ما كانت تلجأ في تعاملها مع هذه القبائل والقوى الى الوسائل الدبلوماسية فإذا ما لجأت الى الحرب ، فإنها تلجأ اليها باعتبارها إحدى الوسائل الدبلوماسية
(Setton,1955,vol.1,p.19) ؛Manning,2016,p.91.

أما في الغرب اللاتيني ، فقد كان الموقف أقل استنارة ، ولم يكن الناس على استعداد لقبول هذه الآراء السلمية (قاسم ، 1990م ، ص29 ؛ ماير ، 2008م، ص50) ، حيث كانت الممارسة الدبلوماسية بالكاد موجودة في الغرب الأوربي ، وربما كانت غير مفهومة لعقلية المحارب الفرنجي (Manning,2016,p.91) ، وقد برزت مشكلة الحرب بشكل ملح بسبب الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي نجمت عن الغزوات الجرمانية التي اجتاحت اوربا في تلك المدة (قاسم ،1999م، ص15؛ قاسم ، 1990م ، ص29) ، لذلك تحتم على أباء الكنيسة ان يواجهوا هذه المشكلة وان يضعوا قواعد توفق بين الايديولوجية الدينية والحاجات السياسية للإمبراطورية الرومانية التي اضحت مملكة مسيحية(قاسم ،1999م، ص14- 15؛ قاسم ، 1990م ، ص28؛ عليوي ، 2019م ، ص124) ، فكان أول من اعطى طابع الشرعية للحرب ووضع لها ضوابط وقوانين القديس سانت امبروز Saint Ambrose (340 – 397م)[6] الذي اعاد التأكيد على نظرية الحرب العادلة التي نادى بها الفقيه الروماني شيشرون ، وقد عرض نظرته للإمبراطورية الرومانية في إطار النعيم الأبدي للكون والسلام العادل نقلاً عن شيشرون (كهينة ، 2011م ، ص2 ؛ عليوي ، 2019م ، ص124) ، وعمل على أعادة تكييف مفهوم الحرب مع ما يتماشى والفقه الكنسي (كهينة ، 2011م ، ص2 ؛ علي ، 2016م ، ص د) ، إذ أكد في

فلسفته على الحاجة الى التمييز بين الحرب العادلة والحرب غير العادلة فمعاقبة المعتدي او الحرب الدفاعية لها من الأسباب ما يبرر شرعيتها ، وقد رأى ان مسألة الحرب العادلة ضرورة لابد منها ، فقد تدعوا لها ظروف خاصة، من أجل منع الأذى عن الاخرين والدفاع عن النفس أو عن الإمبراطورية ، كلها دواعي تبرر ممارسة المسيحيين للحرب (عليوي ، 2019م ، ص156- 157) ، فهو يرى : " ان المجد الذي يتأتى من الشجاعة لا يكمن فقط في مجرد قوة الجسد والسلاح ، ولكن أيضاً في فضيلة النفس، وجوهر الفضيلة ، لا يوجد في أيقاع الأذى بل في منعه ، وكل من يستطيع ان يمنع الأذى عن رفيق ولا يفعل ذلك ، فهو أشبه بمن أوقع ذلك الأذى " (سويفت ، د. ت ، ص67) ، ويفهم ضمناً من ذلك ان المحبة تتطلب استخدام العنف ، وهذا المفهوم مِثَّلَ نقطة حاسمة في أفكار رجال اللاهوت الكنسي عند معالجتهم لمشكلة الحرب ، وله دور مهم في شرعنة استعمال القوة في الفكر المسيحي (المرجع نفسه ، ص67) ، غير أن نظرية الحرب العادلة والمشروعة لم تكتمل معالمها ووتبلور صورتها بشكل واضح الا على يد القديس أوغسطين[7] في القرن الخامس الميلادي (سويفت ، د. ت ، ص72 ؛ قاسم ، 1990م ، ص29) ، الذي يعد أول عالم لاهوتي قدم مفهوماً مسيحياً شاملاً للحرب العادلة في الفكر الكنسي (Izant,2010,p.14)

رابعاً : القديس أوغسطين والحرب العادلة

يعد القديس اوغسطين أشهر من وضع أسس نظرية الحرب العادلة في الفكر المسيحي، إذ انكب في القرن الخامس الميلادي على دراسة مسألة الحرب وقدم التبرير المسيحي الأول لها (فيشر ، 2014 م ، ص105- 106؛ سويفت ، د. ت ، ص72؛ قاسم ، 1990م ، ص29) ، وربما لايزال أكبر مفكر مسيحي ثقافة عن هذا الموضوع (سميث ، 1991م ، ص9) ، وأكثر من عالج مسألة الحرب على أسس مسيحية ماهرة (قاسم ، 1990م ، ص29) ، وفي سعيه الى التعامل مع هذا التحدي اعتمد اوغسطين ، ليس فقط على تعاليم المسيحية ولكن أيضاً ، القانون الروماني وحكمة الفلاسفة الكلاسيكيين من أمثال شيشرون (فيشر ، 2014 م ، ص106) ، وكانت الحرب العادلة بمثابة وسيلة اوغسطين للتوفيق بين التعاليم الانجيلية للصبر والميول السلمية للكنيسة الأولى مع المفاهيم القانونية الرومانية (Izant,2010,p.14 ؛ Russell,1975,p.16) .

كان القديس أوغسطين مقتنعاً بأن الرب هو الآمر بالحرب ، او ببعض الحروب على الأقل، كما أنه كان مقتنعاً بأن أهل الحق مجبرون، أحياناً ، على شن الحرب نتيجة لأخطاء الاشرار (قاسم ،1999م، ص15) ، وفي رأيه ان هدف كل حرب هو السلام ، ومن ثم كانت الحرب أداة سلام ولا ينبغي شنها الا لفرض السلام (Russell,1975,p.16) ، لذلك يجب استبعاد السلام من بين الأسباب العادلة للحرب لأن كل طرف يشن الحرب من أجل السلام(قاسم ، 1990م ، ص29) ، ولكن السلام الذي ينشده ليس سلاماً

مطلقاً، وإنما هو السلام الذي يناسبه هو ، ويتوافق مع مصالحه بغض النظر عن مصالح الآخرين (قاسم ،1999م، ص15) .

ويرتكز مذهب أوغسطين اساساً على التمييز بين الحرب العادلة والحرب غير العادلة (سويفت ، د. ت ، ص75 ؛ بالار ، 2003م، ص32) ، وهو تمييز يرجع في أصله الى المشرعين الرومان، مثل شيشرون ، الذي تناول هذه المسألة في كتاباته (قاسم ،1999م، ص15) ، وكذلك القديس أمبروز (عليوي ، 2019م ، ص156- 157) ، ولكن مفهوم أوغسطين للحرب العادلة تعدى الاعتبارات والمفاهيم الرومانية القديمة ، فقد كان الرومان يعتقدون ان الحرب العادلة هي التي يتم إعلانها بطريقة صحيحة تراعي الطقوس الدينية والشكل الاحتفالي العام، كما ينبغي ان يكون لها مضمون أخلاقي ، أي ان يكون هناك سبب عادل لشنها (قاسم ،1999م، ص15) .

أما أوغسطين ، فكان يرى ان الحرب التي تشن بناءً على أمر مقدس هي حرب عادلة ، لأن الرب بالضرورة هو الذي أمر بها (عليوي ، 2019م ، ص127؛ قاسم ،1999م، ص16؛ مراد ، 2020م ، ص2) ، " يأمر الرب احياناً بالقتل بواسطة شريعة عامة او من خلال وصية وقتية او خاصة ، على ان ذلك العمل لا يكون ، أدبياً قتلاً ... ، أو لم يتجاوز الوصية اولئك الذين بأمر من الله عملوا الحرب " (أوغسطينس ، 2006م، مج1 ، ص41) ، ولما كانت حروب الرب حروباً عادلة ، فإنه يحق للحكام المسيحيين الأمر بشن الحرب دفاعاً عن الحق، وبهذا تكون حروبهم عادلة استناداً الى ما قاله بولس من ان الحكام يستمدون سلطانهم من الرب ، حيث جاء في رسالته الى أهل رومية ما نصه : " لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة ، لأنه ليس سلطاناً إلا من الله ، والسلاطين الكائنة هي مرتبة من الله ، حتى أن من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله .." (رسالة بولس الرسول الى رومية ، الاصحاح 13: آية 1 – 3) ، وبهذا فإنَّ الحرب التي يرخص بها الرب تعتبر تفويضاً إلهياً (قاسم ،1999م، ص16) ، وقد كتب الى المسيحيين الذين تساورهم احياناً الشكوك في كرامة مهنة السلاح وقانونيتها ، أن الله لا ينبذ الجنود ، فمن الممكن ان يرضي المرء الله إذ يرتدي اللباس العسكري (فلوري ، 2004م ، ص41) .

وبعد أن قدم أوغسطين تبريراً مسيحياً للحرب ، تحول الى تعريف الحرب العادلة، وكان التعريف الذي قدمه أوغسطين يعتبر أول تعريف للحرب العادلة يتم صياغته من قبل مفكر لاهوتي غربي منذ عهد شيشرون ، وأصبح البيان الأكثر أهمية لنظريات القرون الوسطى اللاحقة ، وهو : " ان الحرب العادلة تنتقم للأضرار" (Russell,1975,p.18 ؛ Izant,2010,p.14)، بمعنى ان الحرب تكون مبررة عندما يتجاهل شعب ما ، أو مدينة معاقبة الاخطاء التي ارتكبها مواطنوها، أو حين توجد رغبة في استعادة ما قد يكون هذا الشعب ، أو هذه المدينة ، قد استولوا عليه دون وجه حق (فيشر ، 2014 م ، ص106؛ Izant,2010,p.16 ؛ Russell,1975,p.18) ، وعلى هذا الأساس

كان يسمح بالحرب فقط في حال الدفاع واستعادة املاك مسلوبة ، وبهذه الإمكانية الثانية للحرب ترك مجال واسع للتفسيرات الرحبة للأوضاع السياسية (ماير ، 2008م، ص50) .

وقد وضع القديس أوغسطين شروطاً للحرب العادلة، وبمرور الوقت تعرضت تلك الشروط للاختصار، كما تعرضت للتبسيط والايضاح الى حد كبير على أيدي رجال اللاهوت والقانون الكنسي (سميث ، 1991م ، ص10؛ قاسم ، 1990م ، ص29؛ Othman,2014,91) بحيث اختزلت في شروط ثلاثة وهي: 1- ان يكون هناك سبب عادل او قضية عادلة ، تبرر شن الحرب، ومن الطبيعي ان يكون هذا السبب او القضية العادلة ،أما عدواناً مضى عليه عهد قريب او مازال واقعاً ، او عملاً ضاراً أتاه الآخرون (بالار ،2003م، ص32 ؛ سميث ، 1991م ، ص10؛ Othman,2014,91) ، فتشن الحرب للدفاع عن الوطن ، والقانون ، والتقاليد ، او لاستعادة الأرض التي استولى عليها الغير ظلماً (قاسم ،1999م، ص16) . 2- أن يرتكز قرار الحرب على سلطة شرعية ، وجرت العادة أن تكون تلك السلطة علمانية (سميث ، 1991م ، ص10؛ قاسم ، 1990م ، ص29؛ Izant,2010,p.15)، فالرب وحده ونائبه على الأرض والملوك وحدهم هم الذين يتحملون المسؤولية عن حسم ما إذا كان اللجوء الى الحرب ضرورياً (بالار ، 2003م، ص32 ؛ Izant,2010,p.14-15 ؛ Russell,1975,p.22) .

3- ويتمثل الشرط الثالث بالهدف القويم ، وهو ما يعني أن كل مشارك في الحرب يجب ان تكون دوافعه نقية وسامية ، كما ينبغي أن تكون الحرب هي الوسيلة الوحيدة المتاحة لتحقيق الهدف العادل او لاستعادة الحقوق المسلوبة (سميث ، 1991م ، ص10؛ قاسم ، 1990م ، ص29؛ Izant,2010,p.15 ؛ Othman,2014,91) .

أن الشروط او المعايير الثلاثة التي وضعها أوغسطين أولاً ووسعها علماء الدين واللاهوتيون اللاحقون - السبب العادل ، والسلطة الشرعية ، والمقصد السليم – شكلت جميعها مؤشرات لتبرير قرار الانخراط في نزاع عنيف معين، بحيث يضمن استيفاء هذه الشروط الثلاثة أن هناك حق شن حرب (Izant,2010,p.16) ، فكان الأقرار الإلهي للحق في معاقبة الشر أقوى تبرير لأوغسطين في شرعنة أعلان الحرب (Russell,1975,p.23)، والواقع ان التقلبات السياسية التي شهدتها أوربا خلال العصر الوسيط كانت تتيح فرصة هائلة لتفسير كل من هذه الشروط الثلاثة بما يتفق والمصالح السياسية للطرف الذي يشن الحرب (قاسم ، 1990م ، ص29-30).

وهكذا يعود الفضل الى القديس أوغسطين في وضع بذور فكرة الحرب المقدسة، وقد شكلت آراؤه في هذا المجال الخلفية التي قام عليها الموقف الأساسي لمعظم المفكرين الغربيين بخصوص مسألة الحرب (قاسم ،1999م، ص16) ، وظلت الأفكار والصيغ التي تبناها في موضوع الحرب العادلة تشكل تراثاً ثميناً سار عليه عدة فقهاء

ومختصين في الفقه الكنسي في العصور الوسطى والعصر الحديث (كهينة ، 2011م ، ص2 ؛ علي ، 2016م ، ص ه) .

وقد تعامل أوغسطين مع التعاليم والمفاهيم التي وردت عن الحرب في الكتاب المقدس بطريقة أدت الى أعادة تقييمها سياسياً ، مما أدى الى تغير الموقف الفكري للكنيسة الغربية من الحرب ، بحيث أصبحت الحرب ضرورية بعد أن كانت خطيئة بطبيعتها (Russell,1975,p.17)، فجندي المسيح Christi Mile هو الذي يحارب الرجال الآخرين بالإضافة الى الخطيئة والشر (Ibid,p.18) ، وبذلك أقرت المسيحية اللاتينية بشرعية استخدام القوة لتحقيق غايات روحية Kung, (2005,p.259) ، وكان القانون الروماني بمثابة العمود الفقري السياسي لمفهوم الحرب العادلة بينما قدمت المسيحية اساساً للعناصر الأخلاقية للعقيدة (Izant,2010,p.16) .

هذا الموقف الثوري الذي احدثه في الفكر الكنسي فرض الاعتراف بالعنف المادي كحقيقة من حقائق الحياة والمجتمع (قاسم ،1999م، ص16) ، إلا أنه وفي الوقت ذاته أنكر استخدام العنف الجسدي لتحقيق المصالح الفردية لأن ذلك ينطوي على الكراهية وفقدان الحب مما يناقض ما ورد في الكتاب المقدس ، وكان الحكام والمسؤولون هم فقط الذين يمكنهم ممارسة القتل الجماعي من خلال الحرب دون خشية إدانتهم بالكراهية والعواطف الأثمة الأخرى (Russell,1975,p.18).

ويرى احد الباحثين ان القديس أوغسطين كان بمثابة " العراب " الذي تولى مسؤولية السهر على الاتفاق الضمني بين الكنيسة والحاكم آنذاك (كمال ، 2015م، ص2)، إذ عمل رجال اللاهوت الكنسي على مسايرة الوضع السياسي واستغلال حاجة الامبراطور الروماني للتعاون مع الكنيسة الغربية من أجل توسيع نفوذ الكنيسة الديني ، وتنمية إمكاناتها الاقتصادية ، وتقوية رصيدها السياسي في جسد الإمبراطورية المتداعي (علي ، 2016م ، ص د ؛ عليوي ، 2019م ، ص124) ، لذلك عمل أوغسطين على أعادة تكييف مفهوم الحرب مع ما يتماشى والفكر الكنسي (علي ، 2016م ، ص د)، أي ان تغير موقف الكنيسة الغربية من مفهوم الحرب ، أنما كان ينطوي على ابعاد سياسية واقتصادية تصب في مصلحة الكنيسة وتحقق اهدافها ، وبذلك يمكن القول أنه كان للعامل السياسي أثر كبير في تحول الكنيسة الغربية من كنيسة تدعو للسلام والسلم والمحبة الى كنيسة مقاتلة قادت الكثير من الحروب وأضفت شرعية لاهوتية عليها أو حتى أوعزت بها خدمة لمصالح الإمبراطورية الرومانية .

وقد لخص الموسوعي ايزيدور الاشبيلي Seyilla Isidoryon [8] 636-750م موقف أوغسطين من الحرب العادلة في جملة اوردها في كتابه المعروف باسم " الاشتقاقات " ، وصارت ضمن مجموعات القانون الكنسي وهي: " أن الحرب المشروعة

والعادلة هي التي تدور رحاها من أجل استرداد ممتلكات او لصد هجوم " (سميث ، 1991م ، ص10؛ الطحاوي ، 2014م، ص1).

وكان من رأي المشرعين الكنسيين بعد ايزيدور ان المشاركين في الحرب العادلة لا يرتكبون خطيئة بقتل الاعداء، بل انهم قالوا ان من يعاقب الخطاة والمذنبين يكون بمنزلة خادم للرب نفسه (مراد ، 2020م ، ص2 ؛ سويفت ، د. ت ، ص80- 81) ، " أن الأمير هو خادم لله ينفذ غضبه على الفاجر " (Izant,2010,p.15-16) ، كما عالج اولئك المشرعون مسألة الطاعة عندما يختلف الجندي مع أميره حول عدالة الحرب ، وبما أن طاعة الرعايا لملوكهم كانت بمثابة قناعة إنسانية عامة ، فقد التزموا بنصيحة أوغسطين بأن على الجندي أن يطيع أميره ، حتى لو ساورته الشكوك عن عدالة الحرب التي يشارك فيها، ما لم يأمر الأمير بأحكام تتناقض بوضوح مع المفاهيم الإلهية (Russell,1975,p.22)، " عندما يقتل مسؤول بأمر لم يكن مذنباً بارتكاب جريمة قتل، واذا رفض أمر القتل كان مذنباً بالخيانة وأهمال الواجب " (Russell,1975,p.22 ؛ سويفت ، د. ت ، ص81) ، وتبرز من هذا الجانب في فكرة أوغسطين عن الحرب العادلة المؤثرات الرومانية حول اهمية انصياع الجند لأوامر قادتهم بغض النظر عن رأيهم في هذه الأوامر.

لقد كان القديس أوغسطين حريصاً في اجتهاداته الفكرية على صياغة ايديولوجية الحرب بالشكل الذي يبرر استعمال القوة لمصلحة الكنيسة اللاتينية (قاسم ،1999م، ص17؛ كانتور، 1997م، ج2، ص405)، ومن هذا الخط بدأ التطور الذي ادى الى وجود فكرة الحرب المقدسة، ثم الفكرة الصليبية داخل نطاق فكرة الحرب العادلة التي لم تكن تفرق بين الحرب الهجومية والحرب الدفاعية[9]، وهكذا استطاع أوغسطين ان يهزم الاتجاه السلمي الذي تميزت به المسيحية في عهودها الباكرة (قاسم ،1999م، ص17؛ مراد ، 2020م ، ص2)، مما غير موقف الكنيسة الغربية تماماً من الحرب فصارت عملاً ضرورياً بعد ان كانت عملاً خاطئاً (عبد الله ، 2019م ، ص5)، وسمح لها بقدر كبير من المرونة الايديولوجية في التعامل مع المسائل الخاصة بهذا الموضوع ، وقد وظف مشرعو الكنيسة في العصور الوسطى كل من القانون الروماني وعقيدة أوغسطين كمطرقة وسندان لتزوير تبريراتهم للحروب والحملات الصليبية (Russell,1975,p.25) .

وهناك من المفكرين من حاول التفرقة بين الحرب العادلة والحرب المقدسة[10]، إلا أن التمييز بين هذين النمطين من الحرب كان صعباً على المستوى النظري في الفكر المسيحي من ناحية ، كما ان احد لم يحاول على المستوى العملي ان يميز بينهما من ناحية أخرى (قاسم ، 1990م، ص30؛Russell,1975,p.2)، غير أن الحرب المقدسة ظلت حرباً مسيحية ، وان الاقتناع بأنها مقدسة لم يستثنها من القيود التي وضعها الفكر المسيحي المتوارث بشأن اللجوء الى استخدام العنف ، وعلى وجه الخصوص بشأن ضرورة ان تكون تلك الحرب متطابقة مع معايير القضية العادلة، ومع سلطة الملك ، ومع القصد

السليم (سميث ، 1991م ، ص11)، ومن ثم كانت الحملة الصليبية مزيجاً غريباً من الحرب المقدسة والحرب العادلة (Russell,1975,p.2)، وبذلك يمكن القول أن لاهوت الحرب في العصر الوسيط إنما يدين بالكثير للقديس أوغسطين ، الذي وضع أسس وشروط نظرية الحرب العادلة في الفكر المسيحي ، ووفر الغطاء الكنسي الكاثوليكي لمفهوم الحرب .

خامساً : تطور الموقف الرسمي للكنيسة الغربية تجاه الحرب وأبعاده السياسية والاقتصادية

أن التحولات التي طرأت على واقع الغرب الأوربي والظروف التي مر بها في العصور الوسطى ، كان لها أثرها في تطور فكرة الحرب المقدسة، وقد تجسد هذا التطور في موقف كل من البابا غريغوري الأول (590- 604م)، والامبراطور شارلمان (768- 814م)، فعلى غرار بطاركة العهد القديم ، كانت استجابة غريغوري لمشاكل عصره هي الإمساك بالمبادرة العسكرية (قاسم ،1999م، ص18)، والقيام بتحصين الأسوار والقلاع في روما وبقية المدن الايطالية من أجل حمايتها وتنظيم شؤونها الدفاعية ضد اللومبارد، فضلاً عن تسليح رجال الدين للدفاع عنها (عبيد ،1972م، ص166؛ عمران ،1986م، ص159؛ ديورانت ، د.ت ، مج4 ، ج3 ، ص345)، كما قدم مشورته للمناورات التكتيكية ، بل انه تفاوض مع الغزاة باسم روما وعقد معاهدات الهدنة معهم ، وكان يربط دائماً بين قضية الرب والقديس بطرس من ناحية ، والترتيبات العسكرية من ناحية أخرى ، ولكنه كرجل كنيسة يفتقر الى الشرعية السياسية تخطى حاجز الشكوك والهواجس (قاسم ،1999م، ص18؛ Russell,1975,p.27-28)، وتابع الحروب ضد الهراطقة والبرابرة التي تبررها العقيدة الاوغسطينية (Izant,2010,p.18)، وقام بتحريض الجنود الامبراطوريين المكلفين بالدفاع عن روما على اداء واجبهم في محاربة اعداء الكنيسة باعتبارهم محاربي الرب ودفع لهم رواتبهم المتأخرة (قاسم ،1999م، ص18؛عمران ،1986م، ص159؛ Russell,1975,p.27-28) .

أما شارلمان ، فإن الدور الذي قام به لحماية الكنيسة الغربية ، ثم التماس البابوات المتكرر لمساعدة شارلمان ضد تهديدات اللمبارديين لميراث القديس بطرس (أي الولايات البابوية في إيطاليا الوسطى) (ديورانت ، د.ت ، مج4 ، ج3، ص345) ، بالاضافة الى حملاته ضد السكسون لإرغامهم على اعتناق المسيحية (ديورانت ، د.ت ، مج4، ج3، ص229-230؛عاشور ،1976م، ص155- 159؛ Russell,1975,p.29)[11]، كل هذا ادى الى التقريب بين فكرة الحرب العادلة والحرب المقدسة (قاسم ،1999م، ص18) .

وقد كانت التقلبات السياسية والأحداث العسكرية العنيفة التي مر بها الغرب الأوربي في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين مؤاتية تماماً لإبراز مفهوم الحرب الدفاعية، وتأكيد شرعيتها، إذ ان الغزوات التي شنها النورمان الوثنيون، وهجمات المجريين والعرب

على انحاء متفرقة من أوربا في هذين القرنين مثلت ضغطاً على سكان أوربا الذين عاشوا أحلك ايامهم بعد انهيار الإمبراطورية الكارولنجية (ماير، 2008م، ص50).

ولما كانت الكنائس والاديرة تمثل مراكز اجتذاب للنهب بسبب ثرواتها ، فقد بات من الضروري على الكنيسة وعلماء اللاهوت ان يدعموا فكرة الحرب الدفاعية العادلة (ماير ، 2008م، ص50-51؛ قاسم ، 1990م، ص30)، ولكون المغيرين جميعاً لم يكونوا من المسيحيين (لأن النورمان لم يتنصروا الا بعد توطينهم في النورماندي بغرب فرنسا في العام 911م ، كما أن المجريين اعتنقوا المسيحية في وقت قريب من هذا)، فقد كان هذا الأمر على درجة بعيدة من الأهمية لمفهوم الحرب ، حيث ادى الى ارتباط فكرة الحرب العادلة بفكرة الحرب ضد الوثنيين (أي غير المسيحيين) (ماير ، 2008م، ص51 ؛ طقوش ، 2011م، ص26)، ولذلك تحولت الى مفهوم الحرب المقدسة (قاسم ، 1990م، ص30) .

ومن العوامل التي ساهمت في نمو وتبلور مفهوم الحرب في الفكر الكنسي الغربي، استقرار القبائل الجرمانية على تراب الغرب الأوربي (كانتور، 1997م، ج1، ص148)، والذين كانت الحرب تمثل عملاً عادياً في شريعتهم، وكان تراثهم الشعبي يعتبر أعمال الحرب والقتال بمثابة رياضة يومية ، وقد كتب تاكيتوس Tacitus حوالي سنة 110م يصف الشعوب الجرمانية بأنها تقوم بكافة أعمالها الهامة وهي تحت السلاح ، فعندما ينعقد مجلس القبيلة ، كان الاعضاء يعربون عن موافقتهم بقرقعة الأسلحة ، وعن عدم موافقتهم بدمدمة مكتومة (كولتون ،1981م، ص133-134، 160؛ الطحاوي ، 2014م، ص1؛ Manning,2016,p.86)، لذلك فإنَّ عملية تحويل التراث البطولي للشعوب الجرمانية الى تراث مسيحي بعد اعتناقها للديانة المسيحية قد ساهمت بشكل مؤثر في بلورة ونحت فكرة الحرب المقدسة في الغرب الأوربي، لأن اعتناق هذه الأقوام للمسيحية لم يكن يعني بأي حال من الاحوال ان ينبذ ابنائها تراثهم وثقافتهم المتوارثة عبر اجيال عديدة ، لذلك لجأ الجرمان الى تعديل القيم والمثل الجرمانية القديمة في صياغات مسيحية جديدة (قاسم ،1999م، ص39؛ طقوش ، 2011م، ص25)، وقد بدأت الكنيسة تبارك الفرسان وأسلحتهم لكي تكرسهم للدفاع عن العقيدة وعن ممتلكاتها (بالار ، 2003م، ص31؛ فلوري ، 2004م ، ص276-278؛ كولتون ،1981م، ص136)، فأصبحت الحرب المقدسة – أي الحرب التي تحارب لمصلحة الكنيسة – مسموحاً بها ، بل مرغوباً فيها (رنسيمان ، 1993م، ج1، ص150)، واجازت الكنيسة استخدام القوة والعنف لنشر المسيحية ، على نقيض التعاليم الانجيلية الأولى (Kung , 2005,p.259)، وشهدت الفترة الكارولنجية حروباً عديدة ضد الوثنيين ، تم فيها ادخال هذه الشعوب الى حظيرة ديانة السلام والمحبة على أسنة الرماح وأنصال السيوف[12]، وكانت هذه الحروب بدورها عاملاً في تطور ايديولوجية الحرب المقدسة في الغرب(قاسم ،1999م، ص39)، فقد كان شيئاً طبيعياً ان يجد المرء المطارنة ورؤساء الاساقفة يقاتلون بكامل اسلحتهم جنباً الى جنب مع

رفاقهم المسيحيين في حروب مقدسة ضد اعداء النصرانية (بردج ، 2014م، ص18)، وكان نشاط رجال الدين في هذه الحروب هو الذي أدى الى الربط بين الحرب والخلاص، فضلاً عن أن النجاح العسكري لهذه الحملات كان يعزى الى رضاء الرب لأن هذه الحروب تزيد من عدد المسيحيين (قاسم ،1999م، ص39)، وبذلك كانت النزعة التبشيرية باستخدام العنف ملازمة للكنيسة الكاثوليكية انطلاقاً من أفكار القديس أوغسطين، وباتت الحرب مشروعة لأجبار الأوربيين على اعتناق المسيحية (عبد الوهاب، 2000م، ص35؛ Kung , 2005,p.259)، والواقع ان هذه الحروب إنما كانت تنطوي على أسباب سياسية واقتصادية ، فقوتها الدافعة هي الصراع في سبيل الأرض والسلطة وتوسيع النفوذ للحكام الزمنيين ، على الرغم من ارتدائها مظهراً دينياً (ماستناك ، 2009م، ص106- 107).

وهكذا ساهمت الأحداث والتطورات الداخلية التي شهدتها أوربا الغربية خلال عصورها الوسطى في نمو وتبلور مفهوم الحرب المقدسة في الفكر المسيحي، والتي كانت لا تخلو من أبعاد سياسية واقتصادية كان لها أثرها الواضح في تطور هذا المفهوم .

وعلى الرغم من كل ذلك، ينبغي الأشارة الى حقيقة مهمة وهي ان الغرب لم يبارك الحرب مباركة تامة في أي وقت قبل عام 1095م ، بل ان الحرب العادلة أو الحرب المقدسة التي تعضدها الكنيسة بشكل أو بأخر لم تحظ بأي تأييد جماعي في الغرب (قاسم ،1999م، ص18)، وقد ظهر عدد من المفكرين المتشككين بالحرب ومدى شرعيتها في اوائل القرن التاسع أمثال هاليتجار من كامبري Halitgar of Cambrai وهرابانوس موروس Hrabanus Maurus الذي ذهب الى أنه يجب فرض التكفير عن جرائم القتل المرتكبة في الحروب بين الملوك الكارولنجيين، لأن الرب ربما اعتبرهم مذنبين (Russell,1975,p.31)، وظلت صلاحية الحرب المقدسة واراقة الدماء في سبيل الرب محل أخذ ورد (كانتور، 1997م، ج2، ص405)، ولكن كتابات المعاصرين من البابوات كانت تظهر أتجاه متزايد نحو اضفاء الشرعية على الحرب من قبل الكنيسة (قاسم ،1999م، ص18؛ Rist , 2016 ,p.318 ؛ سميث، 1999م، ص21-22)، بفعل الضغوط العسكرية الخارجية التي كانت تتعرض لها القارة الأوربية نتيجة نشاط المسلمين في الجزء الاوسط والغربي من البحر المتوسط ، وهجماتهم على سواحل ايطاليا وجنوب فرنسا وفي اسبانيا (الشيخ ، 2004م ، ص82؛ القيسي ، 1994م، ص14)، لذلك جعلت الكنيسة اللاتينية الحرب الدفاعية ضد المسلمين حرباً مشروعة ووضعت أمام المشاركين فيها امكانية غفران خطاياهم (قاسم ،1999م، ص19؛ بردج ، 2014م، ص18)، فقد أعلن البابا ليو الرابع – Iv Leo (847- 855م) في منتصف القرن التاسع بعد أن أغار المسلمين على روما ونهبوا كنيسة القديس بطرس عام 846م ، أن من يُقتل في معركة دفاعاً عن الكنيسة سينال ثوابه من السماء (رنسيمان ، 1993م، ج1، ص151؛ Manning,2016,p.83 ؛

Russell,1975,p.32)، ووعد كل من يموت في سبيل الدفاع عن الصليب بالأمل الاكيد في الخلاص(باركر، د.ت، ص17)، وبذلك ربط ليو الرابع بين الحرب ضد المسلمين ومفهوم الخلاص (قاسم ،1999م، ص19) .

وفي الواقع كانت هذه محاولة مبكرة من قبل الكنيسة لتعريف الحرب التي يتم خوضها ضد المسلمين دفاعاً عن العقيدة ، على أنها حرب مقدسة يستحق من يشارك فيها غفران الخطايا والخلود الأبدي (Russell,1975,p.32 ؛ Manning,2016,p.83)، وكانت هذه خطوة أكثر تقدماً في سبيل صياغة ايديولوجية الحرب المقدسة أوجدتها الظروف التاريخية الموضوعية، فالكنيسة الكاثوليكية لم تكن متورطة بشكل مباشر في تنظيم الجيوش وتوجيهها للحرب حتى القرن التاسع حينما واجهت مشكلة الدفاع عن أملاكها في وسط أوربا ، وعندما حدث ذلك بدأت محاولاتها لتبرير الحرب على أسس دينية من جهة ، وربطها بمفهوم الخلاص المسيحي من جهة أخرى (قاسم ،1999م، ص19) .

واعلن البابا نيقولا الأول (858- 867م) انه لا ينبغي لمن تدينه الكنيسة بسبب خطاياه ان يحمل السلاح إلا لمحاربة الكفار (رنسيمان ، 1993م، ج1، ص151؛ طقوش ، 2011م، ص26).

وبعد ذلك بسنوات قليلة ، برزت الفكرة مرة أخرى ، وبصورة اوضح على يد البابا يوحنا الثامن (872- 882م) الذي التمس في عام 876م مساعدة شارل الاصلع ضد المسلمين ، وأعرب عن خوفه من انه بدون هذه المساعدة ستتعرض الديانة المسيحية والمجد الامبراطوري للخطر (Russell,1975,p.32-33)، وأعلن ان ضحايا الحرب المقدسة يُعتبرون في مصاف الشهداء ، وإذا ماتوا بسلاحهم في المعركة تغفر لهم خطاياهم (رنسيمان ، 1993م، ج1، ص151؛ طقوش ، 2011م، ص26؛ Russell,1975,p.33 ؛ Manning,2016,p.83) .

وتتمثل أهمية هذه الوعود، بمنح الغفران، أنها تكشف عن تأييد البابوية لفكرة الحرب ضد اعداء الدين والأيمان المسيحي، وبمرور الوقت تحولت الفكرة الى الهجوم بدلاً من الدفاع ، وإن ظلت داخل نطاق فكرة أوغسطين عن الحرب العادلة التي يشنها الرجال لكي يستردوا ما هو حقهم، وكان من السهل دائماً إلقاء اللوم على الطرف الأخر في الحرب ، كما كان من الميسور دائماً ايجاد سبب للحرب يبرر موقف من يبدأ (قاسم ، 1990م، ص30-31؛ ماير ، 2008م، ص51).

ولم يحدث قبل منتصف القرن الحادي عشر الميلادي ، ان تلقفت البابوية، مرة أخرى، فكرة الحرب المقدسة كأساس ايديولوجي لسياستها (قاسم ،1999م، ص20) ، إذ تطلبت حركة الاصلاح الكنسي والسياسة النشطة التي اتبعها البابوات موقفاً جديداً من الحرب (ماير ، 2008م، ص55؛ قاسم ، 1990م، ص35)، ففي عام 1053م قام البابا ليو التاسع – Leo Ix (1048- 1054م)، والذي يُعَّد من اوائل البابوات الاصلاحيين، بقيادة

جيش ضد النورمان في جنوب ايطاليا، وفي هذه الحملة التي قادها البابا بنفسه ، منح الفرسان الالمان الذين ارسلهم الامبراطور الالماني والجنود الايطاليين الاخرين الغفران لكل ما تقدم ذنوبهم وخطاياهم ، والاعفاء من عقوبة التوبة (ماير ، 2008م، ص55؛ سميث، 1999م، ص17؛ Mcbrien , 2006,p.165)، وقد كانت هذه الحملة البابوية كارثة عسكرية ، إذ هزم النورمان الجيش البابوي في معركة كيفيتا(Civita) (قاسم ،1999م، ص20؛ سميث، 1999م، ص17؛ زيتون ، 1980م، ص103)، وتم أسر البابا نفسه ليظل رهين محبسه لدى النورمان مدة تسعة أشهر، ثم اطلق سراحه عام 1054م، وعاد الى روما ليلقى حتفه في نفس السنة (قاسم ، 1990م، ص35؛ Mcbrien , 2006,p.165).

ولاريب ان هذه الحملة تدل على ان الكنيسة الغربية قد غيرت موقفها الفعلي من قضية الحرب، وتكمن أهمية هذه الاحداث في تطوير ايديولوجية الحرب في الدور النشيط الذي لعبته الكنيسة الكاثوليكية في توجيه الحملات العسكرية لحماية املاكها، وعلى ما يبدو ان البابا ليو التاسع لم يكن يعتبر حملته ضد النورمان حرباً عادلة فحسب، وإنما يعتبرها أيضاً حرباً مقدسة دفاعاً عن مصالح الكنيسة وأملاكها (قاسم ،1999م، ص20؛ بالار ، 2003م، ص32) .

لقد تحولت الكنيسة الكاثوليكية من مجرد مؤسسة دينية الى قوة سياسية ذات مصالح دنيوية مثل سائر الحكومات والقوى السياسية في أوربا (قاسم ،1999م، ص20؛ السامرائي وآخرون ،1988م، ص256، 261)، وباتت تحاول فرض وجودها وتحقيق طموحات بابواتها في السيطرة والحكم على كافة المسيحيين بوصفهم خلفاء المسيح (عليه السلام) والقديس بطرس (السامرائي وآخرون ،1988م، ص256؛ فشر، 1957م ، ق1، ص143-145)، وبالتالي كان طبيعياً ان تضطلع بهذا الدور العسكري ، إلا ان طبيعة الكنيسة كتجسيد للسلطة الدينية ، فرض عليها من ناحية أخرى، ان تبحث عن تبرير يتناسب مع طبيعتها ، ولم يكن هناك ما هو أفضل من فكرة الحرب المقدسة التي كانت أساساً جيداً للسياسة الكنيسة العلمانية (قاسم ،1999م، ص20؛ ماير ، 2008م، ص55 ؛ سميث، 1999م، ص17)، وهنا يتجلى البعد السياسي وراء تبني الكنيسة الغربية لمفهوم الحرب المقدسة، من أجل حماية ممتلكاتها والحفاظ على مصالحها الاقتصادية والسياسية في الغرب الأوربي .

سادساً: البابوات والتطور النهائي لمفهوم الحرب المقدسة في الفكر الكنسي الغربي

لقد لعب البابوات دوراً هاماً في صياغة مفهوم الحرب المقدسة استناداً الى مفهوم الحرب العادلة خلال القرن الحادي عشر الميلادي (بالار ، 2003م، ص32 ؛ عبد الله ، 2019م ، ص2)، إذ استخدموا فكرة الحرب العادلة في القتال الذي كان دائراً ضد المسلمين في اسبانيا (قاسم ، 1990م، ص31)، فقد منح البابا الاسكندر الثاني - Alexander II (1061 – 1073م) في سنة 1063م غفراناً للفرسان الفرنسيين الذين ذهبوا

لمحاربة المسلمين هناك ، وإعفاء من التوبة، واعتبر قتالهم للمسلمين بمثابة تكفير عن خطاياهم (سميث، 1999م، ص18؛ بالار ، 2003م، ص33؛ رنسيمان ، 1993م، ج1، ص160)، وبذلك اكتسبت محاربة الكفار (أي المسلمين في نظر الكنيسة الغربية) في اسبانيا شكل الحرب المقدسة (رنسيمان ، 1993م، ج1، ص160؛ زابوروف ، 1986م، ص26)، التي تنطوي فكرتها على قيمة نوعية للقتال ضد اعداء الجماعة المسيحية (بالار ، 2003م، ص33) .

لقد كانت هذه التطورات على المستوى الواقعي انعكاساً للتطورات النظرية التي مرت بها فكرة الحرب المقدسة من ناحية، كما كانت من عوامل تطوير هذه الفكرة ذاتها من ناحية اخرى، فقد سمحت تعاليم المشرعين الكنسيين باستعمال القوة ضد المسلمين في اسبانيا بحجة أنهم يضطهدون المسيحيين، وفي ظل هذه الظروف ينبغي على البابا كراع للشعب المسيحي ان يبيح استخدام القوة لحماية شعب المسيح (قاسم ،1999م، ص21)، تطبيقاً لنظرية أوغسطين عن الحرب العادلة ومبرراتها .

ومن زاوية اخرى من المحتمل ان يكون هذا الصراع الدامي بين النصارى والمسلمين الذي أستمر لمدة تزيد عن خمسة قرون على التراب الإسباني، قد ساهم في تبلور الفكرة اللاتينية عن الحرب المقدسة، إذ يرى المؤرخ نورمان فرانك كانتور(1997م، ج2 ، ص404) أنه " من الضروري ان نبحث عن اصول فكرة الحروب الصليبية في طيات الصراع بين المسلمين والمسيحيين في اسبانيا، وان نتأمل كيف خرجت الفكرة اللاتينية عن الحرب المقدسة من هذه الخلفية ... فربما يكون الأسبان المسيحيون- في خضم صراعهم مع المسلمين- قد قلدوا ، وربما بطريقة غير واعية ، مبدأ الجهاد الإسلامي بعقيدته القائلة بإن أفضل نهاية للأنسان ان يموت مجاهداً في سبيل الله ، وقد صار التعصب الديني والبسالة الحربية هي الخصال التي تلقى ترحيب المجتمع الاسباني وتقديره "، ويذهب المؤرخ الاسباني أميركو كاسترو الى أن فكرة الحرب المقدسة المسيحية ما هي الا انعكاس لمفهوم الجهاد الإسلامي نتيجة للاحتكاك والمعايشة مع المسلمين في اسبانيا وبالتالي فهي مستوحاة من هذا المفهوم (2003م، ص239- 240)، ويرى الدكتور قاسم عبده قاسم ان هذا الاستيحاء قد تم لمواجهة القوى الإسلامية نفسها، إذ كانت المسيحية الغربية بحاجة الى ما يمكن تسميته اليوم بعقيدة القتال لتتمكن من مواجهة عدوها الذي يحارب على أساس من عقيدة قوية (1999م، ص52).

وعلى الرغم من وجاهة هذا الرأي إلا انه لا يوجد دليل قاطع عليه، فالتأثير الإسلامي يبدو واهياً في ضوء نصوص القديس أوغسطين والملاحم البطولية والنزعة العسكرية للشعوب الجرمانية، فضلاً عن التطورات التاريخية التي كان الغرب الأوربي مسرحاً لها، والتي أدت الى عسكرة المجتمع في تلك المدة، وبذلك يمكن القول ان بروز وتبلور مفهوم الحرب المقدسة كان تطوراً ايديولوجياً أنفرد به الغرب اللاتيني نتيجة

مجموعة من الظروف والعوامل التاريخية التي ترتبط بواقع المجتمع الأوربي وحاجاته خلال العصور الوسطى .

وقد بلغ تطور هذا المفهوم الذروة على عهد البابا غريغوري السابع - Gregory VII (1073 – 1085م) الذي صاغ فكرة الحرب المقدسة في شكلها النهائي، واحدث نقلة نوعية في موقف المسيحية من الحرب (قاسم ، 1990م، ص31؛ ماستناك ، 2009م، ص115)، حتى انه يعد المبتكر الحقيقي لفكرة الحرب المقدسة في العصور الوسطى[13]، فهو لم يتحدث مثل أسلافه من البابوات عن الحروب الدفاعية، ولكن تحدث عن الحروب الهجومية من أجل توسيع رقعة العالم المسيحي (الزيلعي ، 2011م، ص196)، وقد رأى ان وظيفة العلماني هي القتال ضد اعداء الكنيسة ومخربي النظام المسيحي الصحيح (ماستناك ، 2009م، ص115)، واستخدم عبارة "حرب المسيح Militia Christi " للمرة الأولى بالمعنى الدنيوي وليس بالمعنى المجازي الذي استخدمه القديس بولس، إذ كان القديس بولس يقصد بهذه العبارة الحرب المعنوية ضد الشر المعنوي وليس ضد اللحم والدم ، ويتسلح لها المسيحي بأنجيل السلام ، وجنودها الرهبان والشهداء ، وهي على النقيض تماماً من الحرب الخاطئة التي تستعمل فيها الاسلحة المادية في الحرب الدنيوية ، إلا أن غريغوري السابع صرح بأن الحرب الأرضية يمكن أن تكون جزءاً حقيقياً وأصيلاً من حرب المسيح (انظر: قاسم ، 1990م، ص31، 44 حاشية 71 ؛ قاسم ،1999م، ص21-22)، ودعا عامة الناس في كل انحاء أوربا الى تشكيل قوة حربية سماها " فرسان القديس بطرس " تكون مرتبطة بالبابا، ومكرسة للدفاع عن الكنيسة (آرمسترونغ ، 2005م، ص99) .

وهناك عدة رسائل تنسب الى هذا البابا ذي النزعة العسكرية ، تدل بشكل واضح على التغير الجوهري الذي أحدثه في مفهوم الحرب المقدسة وفي موقف الكنيسة الرسمي تجاهها (للاطلاع على مضمون هذه الرسائل انظر: فلوري ، 2004م ، ص217-219؛ سميث، 1999م، ص18؛ قاسم ، 1990م، ص31)، إذ اقترح تشكيل حملة عسكرية تحت زعامة البابوية تكون وجهتها نحو القسطنطينية لمساعدتها بعد توالي ورود الانباء بتداعي الإمبراطورية البيزنطية أمام السلاجقة الاتراك الذين كانوا يسددون لها ضرباتهم القوية (كانتور، 1997م، ج2، ص405 حاشية1؛ سميث، 1999م، ص22؛ آرمسترونغ ، 2005م، ص99- 100)، وقد رأى نفسه في سرحة من سرحات الخيال قائداً لجيش الخلاص الكاثوليكي المتجه الى بيزنطة لتخليصها من خطر المسلمين وتوحيدها تحت زعامة البابوية (كانتور، 1997م، ج2، ص405- 406 حاشية1؛ قاسم ،1999م، ص23؛ رنسيمان ، 1993م، ج1، ص175).

ومن الواضح ان الفكرة التي كانت تدور بذهن غريغوري السابع كان محورها الحرب المقدسة الهجومية ، إلا أن النزاع الذي نشب بينه وبين الامبراطور هنري الرابع

حـــال دون تنفيـــذ فكرتـــه هـــذه (قاســـم ،1990م، ص31 ؛ زابـــوروف ، 1986م، ص32)، وعنـدما ربـط غريغـوري السـابع بـين الحـرب ضـد المسـلمين وفكـرة الحـرب المقدسـة كـان يجسـد الفكـرة القائلـة بـان على الحبر الأعظـم ان يسـتخدم القـوة لحمايـة شـعب المسـيح مـن الاعـداء باعتبـار هـذا سـبباً عـادلاً في الحـرب (قاسـم ، 1990م، ص31-32 ؛ قاسـم ،1999م، ص24)، فالبابـا غريغـوري السـابع هـو مـن وضـع الفكـرة النظريـة لأوغسـطين (الحـرب العادلـة) وطبقهـا على أرض الواقـع لتكـون الأسـاس لكـل البـابوات الـذين جـاءوا مـن بعـده في أعـلان الحـرب المقدسة وشرعنتها بعد ان كانت من المحرمات في الفكر المسيحي .

وقـد كانـت اهـداف هـذا البابـا مـن وراء مشـروع محاربـة السـلاجقة ومسـاعدة البيـزنطيين، إنمـا تنطـوي على أبعـاد سياسـية – اقتصـادية تصـب في مصـلحة الكنيسـة الغربيـة، فقـد أراد اعـادة الكنيسـة البيزنطيـة المنشـقة الى حضـن كنيسـة رومـا، واخضـاع بيزنطـة نفسـها لنفـوذ الكرسـي الرسـولي، الأمـر الـذي كـان مـن شـأنه أن يوسـع المـوارد الماديـة للكنيسـة الكاثوليكيـة ويسـهل على البابويـة تحقيـق برنامجهـا التيـوقراطي الكلـي في الغـرب (زابوروف ، 1986م، ص30، 32 ؛ عبيد ، 1970م، ص49-50) .

وكانـت محصـلة هـذا التطـور الطويـل لفكـر الكنيسـة الغربيـة عـن موضـوع الحـرب (بـالار ، 2003م، ص32)، هـو رسـوخ فكـرة الحـرب المقدسـة بشـكل تـام في الفكـر الكنسـي مـع بدايـة بابويـة أوربـان الثـاني (1088- 1099م) في أواخـر القـرن الحـادي عشـر الميلادي، إذ كانـت الكنيسـة قـد اعترفـت مـراراً بـأن الحـرب ليسـت ممارسـة مشـروعة فحسـب، وإنمـا يمكـن أيضـاً ان تكـون خطـوة في سـبيل الخـلاص والحيـاة الأبديـة لمـن يشـاركون فيهـا (قاسـم ،1999م، ص24)، وعنـدما قـام البابـا أوربـان الثـاني بالـدعوة الـى الحملـة الصـليبية على العـالم الإسـلامي في مجمـع كليرمـون بجنـوب فرنسـا عـام 1095م (Munro, ; Rist , 2016,p.309 1916,p.348)، لـم يكـن عنـده ادنـى شـك في ان محاربـة المسـلمين في الشـرق هي حـرب عادلـة ، وهـو بهـذا يعكـس فكـر عصـره ، ويجسـد ذلـك الأرث الطويـل لفكـر الكنيسـة الكاثوليكيـة عـن مفهـوم الحـرب ، لاسـيما وانـه كـان مطلعـاً على الدراسـات النظريـة للمصـلحين الكنسـيين والآبـاء المسـيحيين الأوائـل عـن العنـف ككتابـات القـديس أوغسـطين عـن الحـرب العادلـة ومبرراتهـا، لـذلك كـان عنـد أوربـان اعتقـاد جـازم بـأن دعوتـه للحـرب إنمـا هي قضـية عادلـة (سـميث، 1999م، ص39؛ بـول ، 2008م، ص38)، إذ ان المسـيحية تسـترجع قبـر السـيد المسـيح باعتبـاره حـق مغتصـب وتقـدم المسـاعدة للمسـيحيين الشـرقيين ضـد المسـلمين (الشـارتري ، 1990م، ص36؛ زابـوروف ، 1986م، ص44؛ السـامرائي وآخـرون ،1988م، ص260)، وقـد ادى ذلـك الى نشـوب الحـروب الصـليبية التي اكتـوى بنارهـا العـالم الإسـلامي لمـا يقـارب قـرنين مـن الـزمن، والتي كانـت تمثـل التطـور النهـائي لمفهـوم الحـرب المقدسـة في الفكر الكنسي الغربي .

وهكذا بدأ تاريخ كنيسة العصور الوسطى بالإنجيل المبشر والداعي الى السلام لينتهي الى الكنيسة المقاتلة تحت راية الصليب، وبذلك تمكن التيار الأوغسطيني في المسيحية الكاثوليكية أن يهزم التيار السلمي في نهاية المطاف، إذ وضع أوغسطين تبريراً للحرب العادلة، وجسد غريغوري السابع فكرة الحرب المقدسة (قاسم ،1999م، ص24، 26)، ووضعها أوربان الثاني موضع التطبيق بدعوته الى الحروب الصليبية .

والواقع ان دوافع أوربان الثاني وراء اتخاذ قرار أعلان الحرب المقدسة ضد المسلمين في الشرق، إنما تتضمن ابعاداً سياسية واقتصادية تتمثل في قهر السلطة الزمنية في أوربا لأنه وجد في مشروع الحملة الصليبية فرصة لأن يضع أباطرة وملوك أوربا في موضع حرج أمام رعاياهم المسيحيين ويخضعهم لمشيئته وكان ذلك بمثابة ابتزاز سياسي (عبد الحميد ، 2002م، ص89؛ السامرائي وآخرون ،1988م، ص256؛ ضبيع ، 2009م ، ص82)، وقد أدى هذا المشروع الى ازدياد نفوذ البابوية وسلطانها السياسي في أوربا على حساب الأباطرة والملوك العلمانيين، لأنها تولت زعامة العالم المسيحي في صراعه الطويل ضد المسلمين (عاشور ،1976م، ص319؛ عبد الحميد ، 2002م، ص42؛ Munro, 1916,p.349)، واستخدمت ذلك كمبرر للتدخل في الشؤون السياسية للبلدان الأوربية (ماستناك ، 2009م، ص187، 189؛ عبد الحميد ، 2002م، ص42)، وبفضل هذه الحرب المقدسة أصبحت الكنيسة الغربية من ناحية أخرى لاعباً رئيسياً في السياسة الدولية آنذاك .

من الناحية الاقتصادية اتسعت القاعدة المالية للكنيسة الكاثوليكية وازدادت مواردها بفعل الضرائب والعشور التي فرضتها على الشعوب الأوربية لتمويل هذه الحملات والانفاق عليها، والتي ترسب قسم لا يستهان به منها في خزائن بابوات روما، وكانت في الواقع تبدد على اوجه أخرى تحقيقاً لمصالح رجال الكنيسة وأطماعهم العلمانية (زابوروف ، 1986م، ص328، 338؛ يوسف ، 1967م، ص72؛ Munro, 1916,p.352,355-356)، فضلاً عن أن الأراضي المحتلة في الشرق قد جلبت معها ثروات وممتلكات هائلة، من اموال الكنائس والاديرة التي خضعت كلها لسلطان كنيسة روما (انظر: رنسيمان ، 1993م ، ج3 ، ص536-537؛ يوسف ، 1967م ، ص102-103 ؛ Munro, 1916,p.352, 356)، وشكلت الحروب الصليبية مصدراً مهماً للعديد من المنافع الاقتصادية التي استفادت منها الكنيسة الغربية، وقد كانت ايرادات البابوية مباشرة وغير مباشرة من هذه الحروب، وجاءت هذه الايرادات بشكل رئيسي من السياحة الدينية، وبيع الآثار والضرائب والرسوم الجديدة، وجاءت المنافع غير المباشرة من زيادة السلام المحلي داخل أوربا، والذي أدى من جهة الى حماية أملاك الكنيسة وعقاراتها من مخاطر الحروب الاقطاعية، ومن جهة أخرى ادى الى توسع التجارة (Ekelund, Hebert, Tollison,2015,p.9) .

وقد أدرك الفاتيكان الفوائد المالية المستمدة من احتكار توريد الآثار المقدسة، وكانت تلك الآثار تعمل على جذب السياح وتعزيز عائدات الكنيسة Ekelund and others,2015,p.10)، وانتفعت الكنيسة أيضاً من اقراض الصليبيين من أجل الاستعداد للحرب في الشرق وشكلت الايرادات المتأتية من القروض الممنوحة للعلمانيين والصليبيين مورداً هاماً من موارد خزينة روما (Ekelund and others,2015,p.7) .

ان هذا التوظيف الاقتصادي لمفهوم الحرب المقدسة من قبل كنيسة روما يمثل بعداً اقتصادياً لتطور مفهوم الحرب ، كما انه كان أحد عوامل هذا التطور ، إذ شكلت المنافع المالية التي حققتها البابوية من هذه الحرب مبرراً اقتصادياً أخر لاستمرارها بتشجيع تلك الحروب الصليبية التي باتت معيناً لا ينضب من المال الذي امتلأت به خزائنها ، كما أن التوظيف السياسي لفكرة الحرب المقدسة من قبل الكنيسة الغربية من أجل تعزيز مكانتها وتحقيق اهدافها، كان يمثل بعداً سياسياً لتطور مفهوم الحرب، فضلاً عن كونه احد عوامل هذا التطور في الوقت ذاته ، فالكنيسة اللاتينية بتبنيها لهذا المفهوم ارادت تبرير سلوكياتها التوسعية الاستعمارية واستخدامها للقوة العسكرية من أجل تحقيق مصالحها السياسية والاقتصادية في اوروبا وخارجها .

تماماً مثلما يقوم به الغرب اليوم وما يبذله من محاولات لتبرير سياسته وسلوكه الاستعماري الذي يهدف الى فرض الهيمنة المطلقة على شعوب العالم الثالث والتحكم بمصائر بلدانها واستنزاف ثرواتها وخيراتها، تحت شعارات نشر الديمقراطية والحرية والدفاع عن حقوق الأنسان والعولمة وغيرها من الذرائع والمبررات التي تمثل دروباً للاستعمار الحديث (للتوسع في هذا الموضوع انظر: أركون ، 2011م، ص306- 307) .

وفي الآونة الأخيرة ، وفي خضم الحرب على الإرهاب في القرن الحادي والعشرين ، تم التعبير عن أدبيات هذه الحرب ، باستخدام نفس أدبيات الحروب الصليبية ، ويُعدَّ تصريح الرئيس الأميركي جورج بوش في أعقاب هجمات الحادي عشر من أيلول عام 2001م ، خيرُ دليلٍ على ذلك (Cartwright, 2018,p.5)، وبالتالي فأن ما تقوم به الولايات المتحدة الأمريكية في عصرنا الراهن من شن حروب وقائية استباقية ضد بعض البلدان تحت ذريعة محاربة الإرهاب وحماية حقوق الانسان ، له جذوره التاريخية التي تضرب بعيداً في عمق التاريخ الأوربي والفكر الكنسي الغربي .

الخاتمة

1- ان المسيحيين في الغرب الأوربي قد تبنوا أربع وجهات نظر عن الحرب عبر التاريخ يمكن اجمالها في عدم المقاومة ، والمسالمة المسيحية ، وفكرة الحرب العادلة ، وأخيراً فكرة الحرب المقدسة أو الحرب الصليبية ، وقد كان للعوامل السياسية والاقتصادية أثر كبير في تحول الكنيسة الغربية من كنيسة تدعو للسلام والمحبة الى كنيسة مقاتلة قادت الكثير من الحروب وأضفت شرعية لاهوتية عليها أو حتى أوعزت بها، خدمة

لمصالح الإمبراطورية الرومانية ، إذ وجد رجال اللاهوت الكنسي في مسايرة الوضع السياسي والتحالف مع الأباطرة الرومان ما يحقق مصالح الكنيسة ويوسع نفوذها الديني والسياسي وينمي مواردها الاقتصادية في جسد الإمبراطورية المتداعي، فجاء تحالف الكنيسة والدولة ليشكل الخطوة الأكثر اهمية في اضفاء الشرعية على فكرة الحرب .

2- ان العوامل التي ساهمت في نمو وتطور مفهوم الحرب في الفكر الكنسي الغربي تكمن في الاجتهادات النظرية للقديس أوغسطين بخصوص عدالة الحرب ومشروعيتها، والملاحم البطولية والنزعة العسكرية للشعوب الجرمانية ، فضلاً عن التطورات التاريخية التي كان الغرب الأوربي مسرحاً لها، والتي أدت الى عسكرة المجتمع في تلك المدة، واستناداً الى ذلك يمكن القول ان بروز وتبلور مفهوم الحرب المقدسة كان تطوراً ايديولوجياً أنفرد به الغرب اللاتيني نتيجة مجموعة من الظروف والعوامل التاريخية التي ترتبط بواقع المجتمع الأوربي وحاجاته خلال العصور الوسطى، وان هذا التطور لا يخلوا من أبعاد سياسية واقتصادية ارتبطت بمصالح الكنيسة الغربية ورجال الدين في تلك الفترة ، وكان لها أثرها الواضح في تطور هذا المفهوم .

3- كانت النزعة التبشيرية باستخدام العنف والقوة ملازمة لكنيسة العصور الوسطى انطلاقاً من أفكار القديس أوغسطين، وقد أجازت الكنيسة استعمال القوة لنشر المسيحية ، وشهدت الفترة الكارولنجية حروباً عديدة ضد الوثنيين، تم فيها ادخال العديد من الشعوب الى المسيحية على أسنة الرماح وانصال السيوف ، وكانت هذه الحروب بدورها عاملاً في تطور ايديولوجية الحرب المقدسة في الغرب الأوربي ، كما أنها تنطوي على ابعاد سياسية واقتصادية فقوتها الدافعة الرئيسية هي الصراع في سبيل الأرض والسلطة وتوسيع نفوذ الحكام الزمنيين ، على الرغم من ارتدائها مظهراً دينياً .

4- لقد تحولت الكنيسة الكاثوليكية من مجرد مؤسسة دينية الى كيان سياسي – اقتصادي ذو مصالح واهداف دنيوية كسائر الحكومات والقوى السياسية في اوربا، وبدأت تسابق قوى الملوك والاباطرة السياسية لكي تفرض نفوذها وهيمنتها على مجرى الأحداث في أوربا ، إلا أن طبيعة الكنيسة كتجسيد للسلطة الدينية ، فرض عليها البحث عن تبرير للحرب يتناسب مع طبيعتها، ولم يكن هناك ما هو أفضل من فكرة الحرب المقدسة كأساس ايديولوجي لسياستها العلمانية .

5- ان التوظيف السياسي لفكرة الحرب المقدسة من قبل الكنيسة الغربية من أجل تعزيز مكانتها وتحقيق اهدافها، كان يمثل بعداً سياسياً لتطور مفهوم الحرب، فضلاً عن كونه احد عوامل هذا التطور في الوقت ذاته ، فالكنيسة بتبنيها لهذا المفهوم ارادت تبرير سلوكياتها التوسعية الاستعمارية واستخدامها للقوة العسكرية من أجل تحقيق مصالحها السياسية والاقتصادية في اوربا وخارجها .

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- انجيل متى ، بيروت : الطبعة الأمريكانية ،1910م .

أ – المصادر

- القديس أوغسطينس(2006م) ، مدينة الله ، تر: الخور أسقف ، ط2 ، بيروت : دار المشرق
- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (2000م) ، تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تح: خليل شحادة ، بيروت: دار الفكر .
- الراغب الأصفهاني ، أبي القاسم الحسين بن محمد (د.ت) ، المفردات في غريب القرآن ، تح : محمد سيد كيلاني ، بيروت : دار المعرفة .
- رسالة بولس الرسول الى رومية، تح : القس انطونيوس فكري، مشروع الكنوز القبطية، د.ت
- الشارتري ، فوشيه (1990م) ، تاريخ الحملة الى القدس (1095 – 1127م) ، تر: زياد جميل العسلي ، ط1 ، بيروت : دار الشروق .
- الفيروز آبادي ، محمد بن يعقوب (2005م)، القاموس المحيط ، تح : مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ، ط 8 ، بيروت : مؤسسة الرسالة .
- أبن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري (د.ت) ، لسان العرب ، تح : عبد الله علي الكبير وآخرون ، القاهرة : دار المعارف .

ب – المراجع

- أركون ، محمد (2011م) ، نحو تاريخ مقارن للأديان التوحيدية ، تر: هاشم صالح ، ط1، بيروت : دار الساقي .
- آرمسترونغ ، كارين (2005م) ، الحرب المقدسة (الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم) ، تر: سامي الكعكي ، بيروت : دار الكتاب العربي .
- باركر ، ارنست (د.ت)، الحروب الصليبية، تر: السيد الباز العريني، بيروت: دار النهضة العربية .
- بالار ، ميشيل (2003) ، الحملات الصليبية والشرق اللاتيني من القرن الحادي عشر الى القرن الرابع عشر ، تر: بشير السباعي ، المريوطية : عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية .
- بول ، ماركوس (2008م) ،" الأصول" ، ضمن كتاب تاريخ الحروب الصليبية ، تحرير: جوناثان رايلي سميث ، ط1 ،القاهرة : المركز القومي للترجمة ، ج1 .
- جيبون ، إدوارد (1997م) ، اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، تر: محمد علي ابو درة ، ط2 ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب .

- ديورانت ، ول وايريل (د.ت) ، قصة الحضارة ، تر: محمد بدران ، بيروت : دار الجيل.
- رستون ، جيمس (2002م) ، مقاتلون في سبيل الله (صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد والحملة الصليبية الثالثة) ، تر: رضوان السيد ، ط1، الرياض : مكتبة العبيكان .
- رنسيمان ، ستيفن (1993م) ، تاريخ الحملات الصليبية ، تر: نور الدين خليل ، ط2 ، جنيف : د. مط .
- رنسيمان ، ستيفن (1997م) ، الحضارة البيزنطية ، تر: عبد العزيز توفيق جاويد ، ط2 ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- زابوروف ، ميخائيل (1986م)، الصليبيون في الشرق ، ترجمة : الياس شاهين ، موسكو : دار التقدم .
- الزحيلي ، وهبة (1998م) ، آثار الحرب في الفقه الإسلامي (دراسة مقارنة) ، ط 3 ، دمشق : دار الفكر.
- زيتون ، عادل (1980م) ، العلاقات السياسية والكنسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى ، ط1، دمشق : دار دمشق .
- الزيلعي ، محمد بن عمر آل عمر (2011م) ، الطائفة الكاثوليكية وأثرها على العالم الإسلامي ، ط1 ، الرياض ، مجلة البيان .
- السامرائي، خليل أبراهيم وطارق فتحي سلطان وجزيل عبد الجبار الجومرد (1988م) ، تاريخ الدولة العربية الاسلامية في العصر العباسي، ط 2 ، الموصل : دار الكتب .
- سعيد ، حبيب (1977م) ، تاريخ المسيحية (فجر المسيحية) ، بيروت : دار الجيل .
- سويفت ، لويس ج (د.ت) ، الآباء والخدمة العسكرية ، ط1 ، القاهرة : دار الثقافة .
- سميث، جونائان رايلي (1999م) ، الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية ، تر: محمد فتحي الشاعر ، ط2 ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- سميث، جونائان رايلي (1991م)، ما هي الحروب الصليبية ، تر: محمد فتحي الشاعر ، القاهرة : دار المعارف .
- شلبي ، أحمد (1998م) ، مقارنة الاديان المسيحية ، ط 10 ، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية .
- الشيخ ، محمد محمد مرسي (2004م) ، عصر الحروب الصليبية في الشرق ، الاسكندرية : د.مط .
- ضبيع ، صلاح محمد (2009م) ، دور الألمان في الحروب الصليبية 540هـ/1154م الى626هـ/1229م ، ط1 ، القاهرة : المكتب العربي للمعارف .
- طقوش ، محمد سهيل (2011م)، تاريخ الحروب الصليبية (حروب الفرنجة في المشرق) ، ط1 ، بيروت : دار النفائس .

- عاشور ، سعيد عبد الفتاح (1976م) ، تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، بيروت : دار النهضة العربية .
- عبد الحميد ، رأفت (2002م) ، الفكر السياسي الأوربي في العصور الوسطى ، القاهرة
- عبد الوهاب ، أحمد (2000م) ، الحرب المشروعة في الأديان اليهودية والمسيحية والإسلام ، ط1 ، القاهرة : مكتبة التراث الإسلامي .
- عبيد ، اسحاق تاوضروس (1972م)، الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية ، تقديم : جورج شحاتة ، القاهرة : دار المعارف .
- عبيد ، اسحاق تاوضروس (1970م)، روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتيني لمدينة القسطنطينية 869 – 1204 ، القاهرة : دار المعارف .
- العريني ، السيد الباز (د. ت) ، الدولة البيزنطية 323- 1081م، بيروت : دار النهضة المصرية .
- عليوي ، صادق مكي (2019م) ، الحرب العادلة في الفكر المسيحي والإسلامي – دراسة تحليلية ، اطروحة دكتوراه غير منشورة ، جامعة كربلاء : كلية التربية للعلوم الإنسانية .
- عمران ، محمود سعيد (1986م) ، معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، الاسكندرية.
- غرين ، روبرت (2009م) ، الحرب ثلاث وثلاثون استراتيجية ، تر: سامر أبو هواش ، الرياض
- غربال ، محمد شفيق (2010م) ،الموسوعة العربية الميسرة ، ط1 ، بيروت
- فشر ، هـ . ا . ل (1957م) ، تاريخ اوروبا العصور الوسطى ، تر: محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني ، ط3 ، القاهرة : دار المعارف .
- فيشر ، ديفيد (2014م) ، الأخلاقيات والحرب : هل يمكن أن تكون الحرب عادلة في القرن الحادي والعشرين؟ ، ترجمة : عماد عواد، سلسلة عالم المعرفة، العدد 414، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب .
- فلوري ، جان (2004م) ، الحرب المقدسة (الجهاد ، الحرب الصليبية) ، تر: غسان مايسو ، ط1 ، دمشق : دار المدى .
- قاسم ، قاسم عبده (1999م) ، الخلفية الإيديولوجية للحروب الصليبية دراسة عن الحملة الأولى 1095 – 1099م ، ط1 ، المربوطية : عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية.
- قاسم ، قاسم عبده (1990م) ، ماهية الحروب الصليبية ، الكويت : عالم المعرفة .
- القيسي ، زهير أحمد (1994م) ،السراسين ، مجلة المورد ، مج 22 ، العدد الأول ، بغداد: مطابع دار الشؤون الثقافية العامة .
- كاسترو، أميركو (2003م) ، إسبانيا في تاريخها (المسيحيون والمسلمون واليهود)، تر: علي إبراهيم منوفي، ط1 ، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة .
- كانتور ، نورمان فرانك (1997م) ، التاريخ الوسيط قصة حضارة البداية والنهاية ، تر: قاسم عبده قاسم ، ط5 ، القاهرة : عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية .

- كاهن ، كلود (1995م) ، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية ، تر: أحمد الشيخ ، ط1 ، القاهرة : سينا للنشر.
- كهينة ، العباسي (2011م) ، المفهوم الحديث للحرب العادلة ، رسالة ماجستير غير منشورة ، الجزائر: جامعة مولود معمري تيزي وزو ، كلية الحقوق والعلوم السياسية .
- كولتون ، ج .ج (1981م) ، عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ، تر: جوزيف نسيم يوسف ، بيروت : دار النهضة العربية .
- ماستناك ، توماش (2009م)، السلام الصليبي ، تر: بشير السباعي ، ط2، القاهرة : الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية .
- ماير ، هانس ابرهارد (2008م)، تاريخ الحروب الصليبية، تر: عماد الدين غانم، اللاذقية .
- مجمع اللغة العربية (1989م)، المعجم الوجيز ، القاهرة : دار التحرير.
- يوسف ، جوزيف نسيم (1967م) ، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الاولى ، ط3 ، القاهرة : دار المعارف .

ج - المراجع الاجنبية

- Cox, Rory (2017) , " Expanding the History of the Just War : The Ethics of War in Ancient Egypt ". International Studies Quarterly, Volume 61, Issue 2.
- Ekelund, Robert B, Robert F. Hebert, and Robert D. Tollison(2015), The Political Economy of the Medieval Church, The Oxford Handbook of the Economics of Religion, Edited by Rachel M. McCleary, Oxford university press.
- Izant, Christopher L(2010), The Crusades and Jihad: Theological Justifications for Warfare in the Western and Islamic Just War Traditions, ph D thesis , Boston College.
- Kung ,Hans(2005), Religion, violence and "holy wars", International Review of the Red Cross, Vol. 87, No. 858.
- Manning ,Roger B (2016),War and Peace in the Western Political Imagination From Classical Antiquity to the Age of Reason, London: Bloomsbury Publishing.
- Mcbrien , Richard Peter (2006), The pocket Guide to the popes , New york , Library of Congress.
- Munro , Dana Carleton (1916), The popes and the crusades , proceeding of the American philosophical Society , vol . 55 , No .5 .
- Othman, Hussain (2014), Islamophobia, the First Crusade and the Expansion of Christendom to Islamic World, World Journal of Islamic History and Civilization, IDOSI Publications.

- Rist, Rebecca (2016), " The Medieval Papacy, Crusading, and Heresy,1091-1291", within a book A Companion to the Medieval Papacy Growth of an Ideology and Institution, Edited by: Keith Sisson and Atria A. Larson, Leiden : Brill, part 4.

- Rowe , John Gordon (1955) ,The papacy and the crusaders in the East 1100 -1160, Toronto : University of Toronto.

- Russell, Frederick H(1975), The Just War in the Middle Ages, Cambridge: Cambridge University Press.

- Setton , Kenneth Meyer (1955) , A History of Crusades , Philadelphia.

د – مواقع الانترنيت

- حرب ، ويكيبيديا، الموسوعة الحرة (بلا تاريخ) . تم الاسترداد من https://ar.wikipedia.org/wiki/
- الطحاوي ، حاتم (2014م ، 7 أب) ، مقولة الحرب العادلة : قراءة في التراث المسيحي في العصور الوسطى ، مقال منشور على موقع دارعين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ، المريوطية . تم الاسترداد من الرابط http://www.dar-ein.com/articles/447/
- عبد الله ، عمران (2019م ، 24 تشرين الثاني) ، من محبة الأعداء إلى الحروب الصليبية.. كيف جرى واقع مسيحيي الغرب بما لا يشتهي النص؟ ، مقال منشور على موقع الجزيرة . تم الاسترداد من الرابط https://www.aljazeera.net/news/cultureandart/2019/11/24/

- كمال ، بوناب (2015م) ، التدخل الإنساني: إعادة تسويق لنظرية الحرب العادلة ، الحوار المتمدن ، العدد: 4855 ، القاهرة . تم الاسترداد من الرابط https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=474715

- مراد ، حيدر خضير (2020م ، 9 كانون الأول) ، الكنيسة الغربية ونظرية الحرب العادلة في العصور الوسطى ، مقال منشور على موقع مركز الدراسات الاستراتيجية في جامعة كربلاء . تم الاسترداد من الرابط http://kerbalacss.uokerbala.edu.iq/wp/blog/2020/12/09/

- Cartwright, Mark (2018, 9 October), The Crusades: Consequences and Effects, World History Encyclopedia. Retrieved from the link https://www.worldhistory.org/article/1273/the-crusades-consequences--ffects/

الهوامش:

([1]) ماركوس توليوس شيشرون (106 – 43 قبل الميلاد)، خطيب وكاتب ومحام وسياسي روماني ، تلقى العلم على خيرة أساتذة عصره في روما وأثينا ورودس . للمزيد من التفاصيل عن سيرته ينظر: غربال ،2010م ، مج4 ، ص 2061 – 2062 .

([2]) تناول القربان المقدس أو العشاء الرباني (Communion or Eucharist) طقس كنسي يمارس فيه سر من الأسرار الكنسية السبعة ، ويتم فيه تناول الخبز والنبيذ إحياء لذكرى العشاء الرباني وتعبيراً عن التوبة . ينظر: رنسيمان ، 1993م، ج1، ص150 حاشية 1.

([3]) الهراطقة نسبة الى الهرطقة Herecy : وهي مخالفة او الخروج عن القواعد الدينية الاساسية التي تلتزم بها كنيسة معينة . ينظر: رنسيمان ، 1993م، ج1، ص150 حاشية 3.

([4]) وقد يكون الغرض منها إيقاع الدول الأجنبية بعضها ببعض وبذلك يحصل البيزنطيون على توازن يمنع أي عدو محتمل من غزو الأراضي الامبراطورية ، كما حدث عندما اقنع الدبلوماسيون البيزنطيون المجريين بمهاجمة البلغار من الخلف للتخلص من تهديدهم وازعاجهم للإمبراطورية . ينظر: رنسيمان ، 1997م، ص184؛ 89 – Manning,2016,p.88 .

([5]) وعلى سبيل المثال عقد الامبراطور جستنيان عام 532م معاهدة صلح مع الفرس الساسانيين ، وقد تضمنت شرطاً مهيناً ، وهو ان تتعهد الامبراطورية البيزنطية بأن تدفع جزية سنوية ضخمة لملك فارس . انظر: العريني ، د.ت ، ص70 .

([6]) هو اوريليوس أمبروز، زعيم الكنيسة اللاتينية خلال العقدين الأخيرين من القرن الرابع حتى موته عام 397م ، أختير رئيساً لاساقفة ميلانو سنة 394هـ بأجماع شعبي . للمزيد عنه ينظر: كانتور ، 1997م، ج1 ، ص132- 134 .

([7]) اوريليوس اوغسطين Aurelius Augustinus (354- 430م) من ابناء شمال افريقية ، ولد في تاغست لأب وثني وأم مسيحية ، يعتبر أوسع آباء الكنيسة نفوذاً ، وكان لآرائه تأثيراً هائلاً على الكنيسة الغربية . ينظر: سعيد ، 1977م، ص160 – 163 .

([8]) ايزيدور اسقف اشبيليا، كان سليل أسرة رومانية عريقة انتقلت من شمال افريقيا الى أسبانيا في القرن السادس، وقد عرف بسعة اطلاعه ومؤلفاته التي تعتبر من المصادر التي يعول عليها في دراسة الفترة المبكرة من القرون الوسطى. ينظر: ؛ ماير ، 2008م، ص23 الحاشية ؛ قاسم ،1999م، ص56- 57 .

([9]) يقدم المؤرخ فريدريك راسيل ملاحظة مهمة مفادها أن " حرب أوغسطين العادلة لم تحاول التمييز بين الحرب الهجومية والحرب الدفاعية " ينظر: (Russell,1975,p.21 ؛ Izant,2010,p.14) .

([10]) فالحرب المقدسة هي التي يتم اعلانها وخوضها من قبل سلطة ذات طابع ديني مقدس، من أجل اهداف دينية ، بينما الحرب العادلة تشن من قبل السلطة العامة من اجل اهداف أكثر دنيوية مثل الدفاع عن الأرض، والاشخاص ، والحقوق ، وان المشاركة المسيحية في الحرب المقدسة واجبة في حين ان المشاركة في الحرب العادلة مشروعة ولكنها مقيدة . ينظر: Russell,1975,p.2 .

([11]) يروى ان شارلمان لما هزم السكسون خيرهم بين التعميد او الموت وأمر بضرب رقاب 4500 منهم في يوم واحد . انظر: ديورانت ، د.ت ، مج4، ج3، ص230؛ عبد الوهاب ، 2000م ، ص33.

([12]) على سبيل المثال الحروب التي شنها شارلمان ضد السكسون والسلاف وغيرهم. انظر: عاشور ،1976م، ص155-159؛ ديورانت، د.ت، مج4، ج3، ص229-231.

([13]) وكان قبل تسنمه المنصب البابوي قد حرض على أرسال البيرق البابوي الى وليم الفاتح عام 1066م تشجيعاً له على غزو انكلترا. انظر: (كانتور، 1997م، ج2، ص390).

The political and economic dimensions of the development of the concept of war in Western ecclesiastical thought

Assist Prof. Haidar Khudhair Murad

Center for Strategic Studies -Karbala University

haidermurad2018@gmail.com

Keywords : just war, historical roots, holy war, western church

Summary:

This research presents the study of the conditions and factors that contributed to the growth and crystallization of the concept of war in Western ecclesiastical thought during the Middle Ages, and sheds light on the political and economic dimensions that accompanied the development of this concept in Western Europe, which were reflected in the policy of the Catholic Church inside and outside the European continent and its relations with various powers.

Through this study, it became clear to us that the factors that contributed to the growth and development of the concept of war in Western ecclesiastical thought lie in the theoretical judgments of Saint Augustine regarding the justice and legality of war, heroic epics and the militarism of the Germanic peoples, as well as the historical developments in which the European West was the stage, which It led to the militarization of society in that period, and based on that, it can be said that the emergence and crystallization of the concept of holy war was an ideological development that was unique to the Latin West as a result of a set of historical circumstances and factors that are related to the reality of European society and its needs during the Middle Ages, and that this development is not devoid of political dimensions. and economics that were linked to the interests of the Western Church and the clergy in that period, and had a clear impact on the development of this concept.